شعر لامارتين

في ترجماته العربية

جمع ودراسة وتحقيق

د. محمد زكريا عناني

الكويـت

2006

راجع هذا الكتاب وأشرف على طباعته

عبدالعزيز محمد جمعة

الصف والتنفيذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي

محـمـد العـلـي

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

811 شعر لامارتين: في ترجماته العربية/ جمع ودراسة وتحقيق محمد زكريا عناني. -
ط1 . - الكويت : مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2006.
366 ص ؛ 24 سم.
1 . الشعر العربي - العصر الحديث. 2 . الشعر العربي - دواوين وقصائد.
أ . محمد زكريا عناني (جامع) ب . مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. الكويت (ناشر)

رقم الإيداع : **Depository Number: 2006 / 450**
ردمـــــــك: **ISBN : 99906 -72 - 41 - 5**

الآراء الواردة في هذا الكتاب تمثل رأي الكاتب بمفرده، ولا تمثل بالضرورة رأي المؤسسة.

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصدير

يسعدني أن أقدّم لقراء العربية والمكتبة العربية هذا الكتاب الموسوم بـ«شعر لامارتين في ترجماته العربية» الذي عكف على جمعه وتحقيقه ودراسته باحث عربي معروف هو الأخ الدكتور محمد زكريا عناني .

وهو كتاب يكتسب أهميته من كونه يجمع بين دفتيه ترجمات متنوّعة لبعض قصائد شاعر الرومانسية الكبير ألفونس دي لامارتين . وقد قام الدكتور عناني مشكوراً برصد ما استطاع رصده من ترجمات لأشعار لامارتين لعدد من المترجمين والأدباء العرب ، ولعل أشهر قصائده التي تواترت ترجمتها على يراعات المترجمين هي قصيدة «البحيرة» ومن ثم قصائد «العزلة» ، و«الخلود» ، و«الوادي» و«الخريف» وغيرها من القصائد ، وهي بلا شك ، وكما أشار الباحث نفسه ، أكثر من ذلك بكثير ، ولكنها الخطوة الأولى التي تمهد الطريق أمام الباحثين للإحاطة بها والمضي قُدمًا نحو تحقيق الهدف المنشود .

إن صدور هذا الكتاب بمناسبة عقد الدورة العاشرة للمؤسسة في باريس والتي تحمل اسم «شوقي ولامارتين» يدعم ويعزّز إصدارات الدورة حول هذا الشاعر الكبير الذي يصدر له في هذه الدورة كتاب «مختارات من شعر لامارتين» وتُرجم له كتابا «رحلة إلى الشرق» و«حياة محمد» .

والمؤسسة إذ تقدّم لقرّاء العربية هذا الكتاب المهم لترجمات أشعار مبدع فذ استحوذ على الإعجاب شرقًا وغربًا ، لتأمل أن يكون – إلى جانب أمثاله من الإصدارات حول

لامارتين - تمهيداً مباشراً في رصد التأثر المتبادل بين الأدبين واللغتين في فرنسا والوطن العربي ، ذلك التأثير ، الذي بدأ يتكثف مع نشاط حركة الاستشراق والرحلات وبخاصة في القرن التاسع عشر . كما تأمل المؤسسة أن يكون هذا الكتاب فاتحة طيبة للحوار الثقافي واللقاء الحضاري بين الشرق والغرب ، وهذا وحده مطلبٌ نبيلٌ وهدف يُقصد لذاته .

ويسعدني تقديم بالغ الشكر لكل من كان وراء إنجاز هذا الإصدار .

والله من وراء القصد.

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت
السابع والعشرون من شعبان 1427هـ
الموافق للعشرين من سبتمبر 2006م

****

تقديم

لا يتسع هذا التقديم لأكثر من بضع إضاءات حول هذه المجموعة من النصوص لشاعر الرومانسية الأعظم: ألفونس دي لامارتين[1]، والتي تم نقلها إلى العربية في صياغات تراوحت ما بين الشعر والنثر، وما بين السلاسة المرهفة، وأساليب النقل المباشر.

ولا شك أن هذه المجموعة لا تضم كل شعر لامارتين المنقول للعربية، فما من سبيل للوصول إلى كافة ما هنالك من كتب ودوريات وصحف ومجلات مما صدر في الوطن العربي منذ انتشار الطباعة وحتى الآن، فالمسافات شاسعة، وسبل الاتصال يعرف أمرها القاصي والداني، وما أكثر الضائع أو التالف من الدوريات العربية، بحيث إن ما يتم جمعه لا يعدو أن يكون محاولة دؤوبًا لتقصي الظاهرة – ظاهرة اتساع مدى الترجمة بالنسبة للامارتين – دون الزعم بالاستيعاب، فإن دون هذا خرط القتاد، وبحسب هذه المجموعة أنها التفتت إلى تلك الظاهرة «اللامارتينية» بالغة الاتساع.

هناك، ولا شك، شعراء أوربيون وأمريكيون آخرون استحوذوا على الإعجاب، وتمت عملية نقل أشعار لهم نشرت في كتب ومجلات عدة، يأتي على رأسهم هومير، الذي حظيت ملحمتاه : الإلياذة والأوديسا بالعديد من الترجمات، ربما كان على رأسها الترجمة الشعرية التي قدمها سليمان البستاني، وكذلك الكوميديا الإلهية، والتي نقلها نثرًا د. حسن عثمان، وكذلك الفردوس المفقود التي نقلها للعربية د. محمد عناني.

وما دام الحديث يتناول الأعمال الملحمية؛ فتجدر الإشارة إلى الشاهنامة للفردوسي والتي تم نقلها للعربية علي يد البنداري ونشرها د. عبدالوهاب عزام.

(١) لم تستقر الأقلام العربية علي شكل بعينه للاسم، فكثيرًا ما يكتب: لامارتين، لامرتين، وبدرجة أقل لمرتين، وكلها صحيحة.

ومن الأعمال الأخرى الشرقية يشار إلى عبد الرحمن جامي ومطولتيه يوسف وزليخا وسلامان وأبسال (بترجمة عبد العزيز بقوش) كما تم نقل المثنوي لجلال الدين الرومي من خلال ترجمة د. إبراهيم الدسوقي شتا، ولعل أكثر الشعراء الشرقيين الذين حظوا بالاهتمام: محمد إقبال والذي نقل إلى العربية من خلال ترجمة عبد الوهاب عزام لكل من: رسالة الشرق (بيام مشرق) و(ضرب الكليم) وديوان الأسرار والرموز، ونقلها أيضًا جلال الدين الحفناوي، مؤخرًا، كما نقلت لإقبال هدية الحجاز (ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم)..إلخ.

أما العمل الأدبي الشرقي الذي استولى على الألباب، فهو - ولا شك - رباعيات الخيام حيث توجد لها قرابة عشر ترجمات متنوعة، منها - على سبيل المثال - الترجمات الشعرية لكلٍّ من إبراهيم العريض، وأحمد الصافي النجفي، وأحمد زكي أبي شادي، وعبد الحق فاضل، ومحمد السباعي ... إلخ، علاوة على الترجمة ذائعة الصيت لأحمد رامي.

كذلك اعتنى النقلة بأعمال الشاعر الألماني جوته، وقد نقلت بعض مسرحياته الشعرية في قالب شعري عربي مثلما فعل د. محمد عبد الحليم كرارة في نقله لمأساة فاوست وكذلك في تعريبه لمسرحية إفيجينيا.

أما عبد الرحمن بدوي فإنه نقل إلى العربية (في ترجمة نثرية) ما حمل عنوان: «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي».

ولقي شعراء آخرون قدرًا موفورًا من العناية، ويكفي الإشارة لأسماء بالغة الأهمية مثل طاغور، وكذلك الشاعر الفرنسي بودلير، والإنجليزي إليوت واليوناني المتمصر كفافس (وكذلك جورج سفيرس) والإسباني لوركا ... إلخ، والحديث عن الشعر المترجم إلى العربية يمثل وجهًا آخر من أوجه الاتصال العميق بعطاء الآخرين، ويفتح الأبواب أمام دراسات نقدية ومقارنة متعددة الأبعاد.

أما لامارتين، فمن الممكن القول بأن الكتابات العربية عنه كانت قليلة للغاية في خلال القرن التاسع عشر، لعل أقدمها ما يتصل بالشاعر اللبناني خليل الخوري (١٨٣٦ -

١٩٠٧) (قارن عمره بعمر لامارتين : ١٧٩٠ – ١٨٦٩) الذي أبدى إعجابه بلامارتين كما يبدو هذا بجلاء في القصيدة التي كتبها عن الشاعر الفرنسي، والتي أرسلها إليه (بما يعني أنها كتبت في حياة لامارتين) ومطلعها:

حـــزت الـتـــفـــرد يـــا دلامـــرتـين إذ
فـــقـت الـعـــبـــاد وأنت نـعم اللـوذعـــى
هـــذّبـت أفكـــار الـعـــبـــاد ولـم تـزل
تجـــري العظائم من فـــؤادٍ مـــبـــدعِ
في الـشـــرق قـــد عظمت لـذكـــرك رنّةٌ
لمـا اســتـنـار بـنـــورك المـتـلـمـعِ[1]
قـــد قـــادني للشـعـــر شـعـــرك إذ حــلا
ورأيـتـــه يـــدعـــو فـــلـم أتمـنـعِ[2]

والملاحظ أن كتـابًا مـثل «تخليص الإبريز» لرفـاعـة الطهطاوي؛ يخلو من أي ذكـر للامـارتين، على الرغم من أن رفـاعـة عاش خمس سنوات في باريس، شـهـدت صـفـحـات حافلة بأمجاد الشاعر الفرنسي، في حين أن صاحب «التخليص» ذكر أسماء أخرى مثل روسو ومنتسكيو.

على أن الشاعر يحظى باهتمام كبير مع ظهور التيارات الحديثة وازدياد الاتصـال بالثـقـافـات الأوربيـة، ومما يسـجل في هذا الصـدد مـا يجيء في كتـاب روحي الخـالدي (المقدسي) : (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب، وفيكتور هوكو) وظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩١٢ بالقاهرة، ثم توالى نشره بعد ذلك، وفيه عن لامارتين :

---

(١) للمزيد من التفصيلات يراجع من أعمالنا :
– ترجمة الشعر : مساراتها وإشكالياتها، الإسكندرية ١٩٩٤ في ٥٣٧ صفحة، وكذلك كتابنا :
– نحن وآداب العالم، وغيرها.

(٢) نقلاً عن د. نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية، ص ١٦١، استنادًا إلى ديوان خليل الخوري: زهر الربى في شعر الصبا: ص ٧٩ – ٨٠ .
وراجع عن خليل الخـوري : جـرجي زيدان : تاريخ آداب اللغـة العـربيـة ٤ / ٢٥، (طبـعـة د. شـوقي ضـيف)، ومراجعته.

«ثم ظهر لامارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان «التفكرات الشعرية» فكان أول بناء من أبنية الشعر الجديد الموسيقي (ليريك) وخالف فيه أساليب من تقدمه كما خالف المتنبي أساليب الشعراء الجاهليين. واشتمل ديوان لامارتين على تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب وتجليات لطيفة ووصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفًا بديعًا. ومن أحسن ما نظمه قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظمًا للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيانا وباريس سابقًا، وفهمت بأن أحمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعربية، وساح لامارتين في الشرق وأحسن عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفلك) في ولاية أزمير فمكث فيها وفي ربى لبنان وحرر سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات ونظم ديوان الألحان الشعرية والدينية وغيرها»[١].

كذلك تأتي عن لامارتين وكتاباته ورحلته إلى الشرق أخبار ولمحات هنا وهناك، - منها على سبيل المثال لا الحصر (لأن محاولة التقصي تمثل عملاً مستقلاً، يحتاج إلى وقت وصفحات بل مجلدات ..) ما يأتي عند لويس شيخو في «الآداب العربية في القرن التاسع عشر»[٢] وغيره من أصحاب المؤلفات العامة في تاريخ الأدب (وحتى المؤلفات التي تغفل الحديث عنه يمكن أن تفسح المجال أمام استنتاجات متنوعة في هذا الصدد).

وإذن فلتكف مجرد إشارات على أعمال مثل موسوعة نجيب العقيقي : الأدب المقارن[٣]، والكتاب الجامع الذي نشره كلٌّ من أحمد أمين وزكي نجيب محمود بعنوان: قصة الأدب في العالم[٤]، والعديد من المؤلفات التي تتناول الحركة الرومانتيكية، خاصة الرومانتيكية الفرنسية، و على رأسها كتاب د. محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، وكتاب د. عيسى بلاطة : الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث، وتناول د.محمد غلاب

(١) تاريخ علم الأدب، ص ١٦١ من طبعة دمشق ١٩٨٤ بتقديم د. حسام الخطيب.

(٢) ط. بيروت، ١٩٢٤، ص ٢٥ .

(٣) نجيب العقيقي : من الأدب المقارن، ج١، ص ٩٢، طبعة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م.

(٤) أحمد أمين وزكي نجيب محمود : قصة الأدب في العالم، ج٣، ص ١١٥ من طبعة هيئة قصور الثقافة (سلسلة ذاكرة الكتابة) القاهرة ٢٠٠٢م.

لـ «أدباء الرومانتيكية الفرنسية» ودراسة إيليا الحاوي : «الرومنسية في الشعر الغربي والعربي» وكذلك كتاب د. تاج السر الحسن : «الابتداعية (الرومانتيكية) في الشعر العربي الحديث»... إلخ(١)، وعدد لا بأس به من الدراسات المقارنة، ومن أوائلها دراسة عبد الرزاق حميدة بعنوان : «الأدب المقارن»، ويضم بحثًا موسعًا حول شعر البحيرات في الآداب العربية والإنجليزية والفرنسية، ثم توالت الدراسات المقارنة، وتنوعت ما بين أعمال بالغة الجودة مثل مؤلفات د. الطاهر أحمد مكي، إبراهيم عبد الرحمن، سعيد علوش، حسام الخطيب، وأخرى يختلف نصيبها من الإجادة أو ما دون الإجادة، بحسب طبيعتها الأكاديمية أو التدريسية، ولا يزال كتاب محمد غنيمي هلال : «الأدب المقارن» يمثل – على علاّته – أفضل ما كتب في العربية في مجاله.

وإذا كانت بعض المؤلفات المقارنة خلت تمامًا من أي تناول لشعر لامارتين (خاصة المؤلفات المقارنة التي ألفها أساتذة متخصصون في اللغات الشرقية..) فإن عددًا لا بأس به منها تحدث عن لامارتين وأثره في الشعر العربي، خاصة من خلال قصيدته ذائعة الصيت: «البحيرة».

وبالنسبة للكتب التي كُرّست بكاملها لـ : لامارتين، فيأتي على رأسها كتاب إلياس أبي شبكة ويقع في أربع وتسعين صفحة من القطع المتوسط، وكل ما حمل على غلافه الكلمات الآتية :

---

(١) يراجع أيضًا عن الرومانتيكية :

– مقدمة كروموبل (فكتور هيجو) ترجمة د. علي نجيب إبراهيم، دمشق ١٩٩٤م.=

– الرومانتيكية : ما لها وما عليها، روبرت جلكنر وجيرالد انسكو، ترجمة أحمد حمدي محمود، القاهرة ١٩٨٦.

– الخيال الرومانسي لسير موريس بورا، ترجمة إبراهيم الصيرفي، القاهرة ١٩٧٧م.

– الرومانتيكية والواقعية : يانكو لافرين، ترجمة حلمي راغب حنا، القاهرة ١٩٩٥م.

– أقدم لكم الرومانسية : دونكان هيث وجودي بورهام، القاهرة ٢٠٠٢م.

ومن المفيد للغاية مراجعة دراسة بول فان تيجم الموسعة : الرومانسية في الأدب الأوربي، وقد نقل منها جزءان بدمشق ١٩٨١ بترجمة صيّاح الجهيم.

إلياس أبو شبكة

لامرتين

لذكرى مرور مئة سنة على رحلته إلى الشرق

١٨٣٣ - ١٩٣٣

LAMARTINE

En mémoire de son voyage en Orient

1833 - 1933

مكتبة صادر – بيروت

وقد استغرقت عملية عرض مراحل حياة الشاعر الجانب الأكبر من هذا الكتاب الصغير، ومما يضمه مقاطع متناثرة من شعره في (جوليا) – ألفير – في (البحيرة) :

«ذات مساء، أتذكرين ؟ كنا نعوم بسكون

على أحشاء أمواجك المفضضة بضوء القمر

وعلى دويِّ الجذّافين الضاربين بإيقاع»

إلا أن لامارتين أسقط البيت الثاني واستبدله بـ :

«ولم يكن يسمع في الأبعاد، على الماء وتحت السماء

إلا دويّ الجذافين الضاربين بإيقاع

أمواجك الموسيقية»

وقد قدم إلياس أبو شبكة لمحات عن قصيدة (البحيرة) ومدى تأثر لامارتين بجان جاك روسو وشاتوبريان، كما ختم كتابه منوّهًا بقيمة شعر لامارتين.

هذا هو الكتاب الأول عن لامارتين ....

ولكنه لن يكون الكتاب الأخير، بدليل هذا المشروع الماثل بين يدي القارئ الآن.

هناك – حقّاً – ما بين المشروعين؛ الأول والأخير، مؤلفات ودراسات أخرى كُرّست لأعماله أو لبعضها، كما هو الحال مع مجموعة : «مختارات من قصائد لامارتين» من

ترجمة محمد أسعد ولاية وهو أديب مصري سكندري[١] ودراسة محمد زكريا عناني : بحيرة لامارتين في الأدب العربى[٢]، وكتيّب د. زهير مغامي حول البحيرة أيضًا[٣]، فضلاً عن فصول عنه كما هو الحال في كتاب د. محمد غلاب : أدباء الرومانتيكية الفرنسية، (من ص ٦٥ إلى ص ١١٣)[٤]، علاوة على المؤلفات والمجاميع الأخرى التي عوّل عليها صاحب هذا الكتاب في جمعه لمختلف النصوص الشعرية للامارتين، مما تم نقله للغة العربية، ولم ير ضرورة لتكرار ذكرها هنا.

ومن ناحية أخرى؛ فإن هناك عددًا من روايات لامارتين نقل للعربية، وهذه الأعمال الروائية تسهم في تفسير كثير من الجوانب المتعلقة بحياة الشاعر (وإن وضع في الاعتبار أن العمل الإبداعي لا يكون بالضرورة صورة «مباشرة» للأحداث)، ومن هذه الأعمال التي تستحق التنويه :

- جوسلين ، دار صادر (بيروت – ١٩٢٦).
- سقوط ملاك ، دار صادر (بيروت – ١٩٢٧).

وهذان العملان من ترجمة الشاعر اللبناني الشهير إلياس أبي شبكة، صاحب أول كتاب بالعربية عن لامارتين (ذكر في موضعه)، فضلاً عن ترجمة قصائد عدة أوردنا بعضًا منها في هذا الكتاب، وله غيرها في ديوانه «القيثارة».

– رفائيل Raphaël صحائف من العشرين، وهي من أولى الأعمال التي أذاعت اسم لامارتين بين القرّاء العرب، وأهم ترجماتها لأحمد حسن الزيات، لما اتسمت به من أسلوب راقٍ، ولتعدد طبعاتها التي تجاوزت العشر (راجع بشأنها الثبت الببليوجرافي للأعمال المترجمة، وفهارس دار الكتب المصرية).

---

(١) ويقع في ١٣٩ صفحة، ويضم ترجمات شعرية ونثرية، مع مقدمة في نحو عشرين صفحة، وقد طبعت هذه المجموعة بالإسكندرية ١٩٦١م.

(٢) نشرت ضمن كتابه : نحن وآداب العالم، الإسكندرية، وكانت قد نشرت قبلاً في جدة سنة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، راجع المجلد ١٢ من مجموعات المحاضرات، ص ٥١٥ – ٥٧٣).

(٣) نشر ضمن سلسلة الموسوعة الصغيرة – العراق – ولم نتمكن من الاطلاع عليه.

(٤) القاهرة، ١٩٥٨م.

وقد ختم المرحوم الزيات الرواية بترجمته لقصيدتي «الوحدة» و«البحيرة» لما لهما من علاقة بالرواية.

كذلك تأتي طبعة أخرى نشرها عباس حافظ وظهرت ضمن سلسلة روايات الجيب (بلا تاريخ).

– جرازييلا Graziella ومنها كذلك أكثر من طبعة، منها واحدة ترجمها تحت اسم غرازيلا في سان باولو (البرازيل) سنة ١٩١١ وبذا تكون هذه الترجمة أولى أعمال لامارتين المنقولة إلى العربية (راجع مجلة الهلال، السنة العشرين، الجزء الثاني بتاريخ١٩١١/١١/٢ ص ١٢٧).

كذلك تأتي ترجمة أخرى مصرية لإبراهيم عز الدين الدمياطي نشرها بالقاهرة سنة ١٩٢١ وطبعتها المطبعة الرحمانية في ١٨. صفحة (وراجع عايدة إبراهيم نصير : الكتب العربية التي نشرت في مصر بين عامي ١٩٠٠– ١٩٢٥).

ثم تأتي ترجمة نجيب المستكاوي وجودت عثمان (بمراجعة د. يحيى الخشاب) وصدرت عن دار الفكر العربي ١٩٦١م (الألف كتاب).

كذلك هناك ترجمة لمحمد حسني عبد الله، ظهرت في سلسلة روايات الهلال، العدد ٢٩٧ (يناير ١٩٨٢).

– جنيفيف Genevieve، وهي أيضًا بترجمة محمد حسني عبد الله، وطبعت بالقاهرة ١٩٦٥م ضمن سلسلة روايات عالمية (العدد ٣٢٦).

هذا عن المؤلفات والدراسات الموسعة حوله، وأما المقالات فإن أعدادها من الكثرة بحيث يصعب الآن حصرها وتصنيفها، وهاكم هذه اللمحات الببليوجرافية التي تتصل بما نحن فيه : فمما نشر في جريدة السياسة الأسبوعية وحدها :

– مقال مطوّل عن رواية رفائيل (لم يذكر اسم كاتبه) نشر بتاريخ ٣ إبريل ١٩٢٦، وآخر حمل توقيع محمد عبد الله عنان، تنويهًا بقيمة ترجمة الأستاذ الزيات للرواية، ونشر هذا المقال كذلك في شهر إبريل من سنة ١٩٢٦ .

– الرومـانتـزم ولامـارتين، مـقـال حـمل توقـيع مـصطفى عـبـد اللطيف المحـامي (أهو مصطفى عبد اللطيف السحرتي؟) ونشر في أغسطس ١٩٢٧ على حلقتين.

– الفونس دي لامارتين يقص أسباب نشره لاعترافاته وهو كذلك مقال مطوّل، (لم يذكر اسم المترجم) قوامه رسالة بعث بها الشاعر لأحد أصدقائه، يبرر فيها أسباب نشره لاعترافاته، وهذا المقال نشر بتاريخ سنة ١٩٢٨م.

– صراع بين العاطفة والواجب لألفونس دي لامرتين، مقال ترجمه محمود حسن السيد، ونشر في يناير ١٩٣٠م.

– كذلك تورد مجلة أبولو (فبراير ١٩٣٤) مقالة بعنوان زعماء الرومانيسم : لامارتين في نحو عشر صفحات كتبها الباحث التونسي : محمد الحليوي وضمّنها بعض مقتطفات شعرية.

أما مجلة الرسالة فإنها أفسحت العديد من صفحاتها للحديث عن لامارتين وترجمة بعض من مقالاته والتعليق على قدر من قصائده، كما استحوذت مسألة (الأصل العربي للامارتين) على عناية عدد لا بأس به من كتّابها، ومما يستحق التنويه :

– كلمة في باب «من هنا ومن هناك» نشرت بالعدد ٧٩ (يناير ١٩٣٥) لأحمد حسن الزيات (وإن لم تحمل اسمه) حملت هذا العنوان : هل لامرتين عربي ؟ وكان لها رد فعل قوي، كما سيتضح بعد قليل.

– دين البادية : ترجمة عن لامارتين نشرت في مايو ١٩٣٥، يحمل اسم الأستاذ التنوخي (عضو المجمع العلمي العربي وكاتب سره) وهو مقال نقل بأسلوب شاعري جميل يتحدث فيه لامارتين عن البدوي وكيف أن «له من قوة الحواس ما يدرك بها الله في الصحراء أكثر منا : إن حياته لعبادة أبدية، فهو لا يلهيه عن الخالق شيء، ورحابة البادية التي لا حد لها هي معبده والمحراب، فما كان لهذه الطبيعة أن تلتقي والإلحاد أبدًا. أمع مثل هذه الطبيعة يتاح لبدوي أن يلحد يومًا ؟ خذوا أي زنديق من زنادقة الغرب، واقذفوا به بضع سنين إلى المشرق، تجدوه لا يخرج منه إلا معافى من تلك العاهة الروحية. إن

الإلحاد لا ينشأ إلا في الظلال.. إن الشمس لتستأصل شأفة الكفر والإلحاد والشبهات، لأن تلك السموم الباردة لا تنمو إلا في الظلمات».

– لامرتين، نشرت في البريد الأدبي بتوقيع عبد الله كنون الحسني (الباحث المغربي صاحب كتاب : النبوغ المغربي في الأدب العربي) حول احتمال أن يكون لامارتين مغربي الأصل وأن يكون أصل الاسم : العمارتي.

وهذا التعليق يحمل تاريخ فبراير ١٩٣٥ .

– هل لامرتين من أصل عربي ؟ : مقالة صغيرة (نشرت في البريد الأدبي بالرسالة) في مارس ١٩٣٥ بقلم حسن باشو (نشر إلى جوار اسمه : بيروت، دار المعلمين).

– لامرتين، ورينيه جارد : مقالة تحمل توقيع السيد إسكندر كرباج، نشرت مسلسلة في الرسالة اعتبارًا من مايو ١٩٣٦ .

– عيد جوسلين وذكرى لامرتين : مقالة صغيرة لم تحمل اسم كاتبها، نشرت في بريد الرسالة في سبتمبر ١٩٣٦ .

– جرازييلا (قصة) تحمل توقيع يوسف البعيني أرسل بها من البرازيل، ونشرت بالعدد ٣١١ من الرسالة (يوليو ١٩٣٧).

– حول أرزة لامرتين تعقيب صغير يحمل توقيع خليل عطا الله (كلية الحقوق) نشر بالرسالة في ٢٣ أغسطس ١٩٣٧، وانظر الإشارة التالية.

– حول أرزة لبنان، تعقيب يحمل توقيع أمجد الطرابلسي (أصبح فيما بعد أستاذًا مرموقًا في جامعة دمشق) نشر بالعدد ٢١٨ من مجلة الرسالة (٦ سبتمبر ١٩٣٧) يعلّق فيه على ما كتبه خليل عطا الله عن (أرزة لامرتين) نافيًا أن يكون الشاعر وابنته جولي قد زارا قرية بشري اللبنانية وأنهما نقشا اسميهما على شجرة أرز فيها (وقد وضعت لوحة

تذكارية بهذا الصدد إلا أن المؤرخ الفرنسي هنري بوردو له رأي آخر في هذا الموضوع) وكان أمجد الطرابلسي قد نشر في (الرسالة) - ١٦ أغسطس ١٩٣٧ - قصيدة من وحي زيارة أرزة لامرتين هذه، منها :

إيـــــه لمــرتـــين يــــــا صـــــديــقــي
يـا شـــــاعـــــر المأمل الفـــــقــــيـد
يـا صــــــرخـــــة الناي في الليـــــالي
ونـفـــــــحــــــــــة الـزهـر والـورود

– جزيرة الحب والجمال : مزيج من ترجمة شعر لامارتين، والتعليق عليه، بقلم صبحي إبراهيم الصالح،(لعله المرحوم د.صبحي الصالح، أستاذ الإسلاميات بالجامعة اللبنانية، ومؤلف : مباحث في علوم القرآن؟) وظهر بالعدد ٧٧١ من الرسالة (فبراير ١٩٤٨).

– أمنية الشاعر : مزيج من ترجمة الشعر والتعليق عليه بقلم صبحي إبراهيم الصالح، نشر بالعدد ٧٧٤ من الرسالة وما بعده (مايو ١٩٤٨).

– الغروب، لشاعر الحب والجمال لامرتين صبحي إبراهيم الصالح، وتتضمن ترجمة لقصيدة الغروب ممتزجة بتحليل مستفيض، نشرت بالرسالة العدد ٧٨٤، يوليو ١٩٤٨م.

– الخلود، مقال كتبه صبحي إبراهيم الصالح يتضمن ترجمة وتحليلاً لقصيدة لامارتين، ونشر بالعددين ٨٣. - ٨٣٣ من الرسالة (يونية ١٩٤٩) والنص ليس مجرد ترجمة كما ذكرت المجلة لأن التحليل فيه يغلب على الترجمة.

والذي يراجع كافة مجلدات مجلة أبولو سوف يلحظ أن هذه المجلة الرائدة المتخصصة في الشعر لن تحتوي إلا على نص واحد مترجم عن لامارتين.. لماذا ؟

إن السؤال يبقى بلا جواب، وربما جاز القول بأن (أبولو) غلب على شعرائها أن يكونوا من أصحاب الثقافة الإنجليزية لا الفرنسية، ومع ذلك فإن المجلة نشرت لألفريد دي موسيه - وغيره من الشعراء الفرنسيين - ترجمات، فلماذا تم إهمال لامارتين ؟

وعلى كلٍّ فإن العدد التاسع من المجلد الأول من أبولو (بتاريخ مايو ١٩٣٣) تضمن عرضًا لكتاب إلياس أبي شبكة : لامرتين، قدّمه حسن كامل الصيرفي، فضلاً عن المقالة التي أشرنا إليها قبلاً للباحث التونسي محمد الحليوي، ومستهلها :

قال أحد جهابذة النقد في عرض كلامه عن لامرتين :

«إن لامرتين لأكثرُ من شاعر – إنه الشعرُ نفسُه»

ولعمر الحق إن لامرتين لهو الشعر بكل ما في كلمة الشعر من معانٍ، بل هو كل ما في الشعر من حسنٍ جميلٍ – وإذا كان أحسنُ ما في الشعر الحلم بعوالم الجمال والكمال والمثل الروحية العالية، والارتفاع بالعواطف والأشواق إلى أخلص وأطهر ما تكون عليه في القلب البشري، فإن لامرتين كان هذا، وكان شاعرًا عظيمًا في كل هذا – فقد جال وحيُ عبقريته في كل الميادين، ورددت قيثارته كل النغم التي كثيرًا ما كانت ذات نبرات حزينة كئيبة، ولكن رفيعة سامية – وكانت روحه التي لا تنضب تكسو كل حادث عادي أو واقعة عارضة ثوبًا من الجلال، وتسبغ عليه فضل أمثلته الرفيعة وروحانيته المشعّة في كل آثاره.

ذلك أن لامرتين كان روحيّاً بأتم معنى الكلمة، حتى قيل إنه لم يكن رجلٌ مثله لا يرى من الحياة إلا جانبها الجميل، وأنه يرتفع بطبعه إلى التأمل الروحي حتى ليرى ديمومة الجمال في الحياة.

ومن المواد الحديثة :

– لامارتين : أمير الشعراء الفرنسيين، مقال د. محمد منير العجلاني، نشر بالمجلة العربية (الرياض ١٩٧٧).

– ملاحظات نقدية : حديث عن القصيدتين الفائزتين في مسابقة المجلة العربية، بقلم محمد عباس محمد وهذه المقالة ظهرت في مجلة اليمامة، العدد ٤٧٥ (نوفمبر ١٩٧٦)، والترجمتان مذكورتان ضمن مجموعتنا هذه.

عنترة بن شداد كما يراه الأديب الفرنسى لامارتين :

مقالة للباحث العراقي عبد المطلب صالح، ظهرت ضمن كتابه: مباحث في الأدب المقارن (طبع ببغداد سنة ١٩٨٧) ويستغرق من ص١١١ إلى ١١٩، عرض فيه لكتاب لامارتين الذي نشره في مائة وست وثمانين صفحة عن عنترة، ضمن سلسلة كتبه حول «حياة الرجال العظام» وهو في هذا العمل «يقرن سيرة عنترة وشعره بهوميروس وفيرجيل، تلك السيرة التي تقرأ في أرجاء البلاد العربية، موحية بأنبل المسرات الروحية للشعب الذي يواصل إعجابه بها منذ قرون عديدة، ويدعو لامارتين شعوب أوروبا إلى احترام آداب الأمة التي أنتجت هذه الملحمة وهي تحيا في خيامها البدوية. إن الخيمة أكثر تحضرًا من الكهف المظلم الذي كانت تحيا فيه أوربا، كهف البربرية».

– مواد على الإنترنت: تضمنت معلومات عن حياة الشاعر وحول ترجمات قصيدته:البحيرة، تحديدًا، ومن مواد هذا الملف مقالة ظهرت في مجلة الموقف الأدبي (العدد ٤١٧، دمشق ٢٠٠٦) عن هجرة النصوص وجماليات القراءة والتلقي(*). قصيدة البحيرة نموذجًا (د. خليل الموسى) ومقالة أخرى لعبد عون الروضات: بحيرة لامارتين: قوة الشعر وتعدد الترجمات. ثم: من روائع الأدب العالمي: البحيرة للامارتين، وأخيرًا: القصيدة، الطبيعة، الإنسان.

من ملامح «ملف» ما نشر حول لامارتين:

لقد أثارت المقالات السابقة قضايا لا حصر لها حول الشاعر وشعره، ربما كان من أهمها سلسلة دراسات صبحي الصالح (التي تستحق أن تجمع في كتاب مستقل) أما أكثرها طرافة فهي التي دارت حول (عروبة لامارتين) ولعل أقدمها مقال صغير للأستاذ الزيات (الرسالة، يناير ١٩٣٥) في باب: من هنا ومن هناك، يقول فيه:

هل لامارتين عربي؟

(*) **شبكة هجر الثقافية** (http:// 69. 57. 138. 175\ forum\ index. php)

واحة الملتقى الأدبي (http\ 69. 57. 138\ forum\ forumdisplaty.php? F= 3)

جاء في كتاب (لامرتين) تأليف الأستاذين ج. كلويه، وش. فيدال[1] ما نصه:

«كان لامرتين يقول من ذات نفسه إنه تحدر من أصل عربي وإن استقرار آل مرتين Alamurtine في مقاطعة (ماكونيه) يرجع تاريخه إلى الغزوة. وهذا التأكيد لا نجد فيه أساسًا ما دمنا لا نستطيع الرجوع بأصل آبائه إلى ما قبل القرن السادس عشر ففي سنة ١٥٧٢ ذُكر واحد من أسرة لامارتين في مذكرات كورديه (Cordé) بين النبلاء والوجهاء الذين أرغموا على أداء مبلغ جسيم من المال إلى (كلود دجيز) أسقف (كليمى)...

ويقول م. بيير دلا كروتل M. Pierre de Lacretelle إن جد لامرتين، وهو لويس فرنسيس دلامرتين زور في سجل الأحوال الشخصية فحول اسم آلمرتين إلى دلامرتين".

ويقول بيير دلا كروتل في كتابه (أصل لامرتين وشبابه)[2].

"... وأصل الاسم هو ألامرتين Almartine أو ألللامرتين Allamartine كما كان يكتبه، ولا يزال يُسمع إلى هذا اليوم في برغونيا Borgone وفي منطقة اللوار الأعلى. أما موطن الأسرة الأول فهو إقليم كاروليه Charollais حيث يجد الباحث في أخريات القرن الخامس عشر أسماء ألابرت Alaberth وآلابرناد Alabernade وآلابلانش Alablanche، وقد تحولت فيما بعد، إلى دي لا برت De La berth، وديلابرت Delaberth، ودي لا بلانش De La blanshe.

أما الأصل العربي الذي كان يعترف به لامرتين في زهو وفخر فربما كان عذرًا جميلاً عن استسلامه للكسل الرفيع، وحبه الشديد لأنواع الحيوان، وتأثير جاذبية الشرق فيه وسلطانها عليه. ولا تزال هذه النسبة من المسائل التي يغيم على حقيقتها الشك".

فأنت ترى أن لامرتين يعترف في صراحة وثقة بجنسيته العربية، ولكن الكتاب

(1) "Lamartine" Par G. Cluyet et C. Fegdal. Collectiun de "La Vie anecdotique et Pittoresque des Grands Ecrivins".

(2) "Les Origines et la jeunesse de Lamartine" Par Pierre de Lacretelle. Hochette 1911.

الفرنسيين بالطبع لا يصدقون هذا الاعتراف، ولا يؤيدون هذه النسبة، وإنما ينتحلون لها شتى الأسباب ومختلف العلل. فهل فينا من يصمد لهذا البحث في مظانه فيضيف إلى عبقريات العرب هذه العبقرية الخالدة، ويُرجع إلى أرواح الشرق هذه الروح الشاردة.

ولم يلبث أن أرسل عبد الله كنون هذا التعليق والتعقيب وهو مما نشر في فبراير ١٩٣٥، وفيه:

قرأت في «الرسالة» الغراء في باب «من هنا ومن هناك» من العدد التاسع والسبعين، كلمة عن نسب لامرتين الشاعر الفرنسي الملهم واحتمال أن يكون متسلسلاً من أصل عربي كما كان يقول هو عن نفسه. وللتعاون مع الباحث في هذه المسألة أقول: إنني وجماعة من الأدباء، منذ مدة قريبة كنا تذاكرنا في هذا الموضوع، وبعد استعراض ما قيل فيه مما جلبه حضرة الأستاذ صاحب المجلة، جوَّزنا على تقدير عربية الشاعر أن يكون بين اسمه واسم أسرة العمارتي صلة ما، ولا سيما أن أصل الاسم هو ألامرتين أي العمارتي كما نكتبها بالحروف الأفرنجية، وأسرة العمارتي هي من الأسر المنتشرة في هذه الجبال الريفية، والتي يغلب أن يكون أهلها من عرب الأندلس المهاجرين إلى المغرب. فهذا مما يزيد قوة الاعتقاد بعربية لامرتين. نعم هذه النون التي في الطرف ليست في اسم الأسرة المذكورة، ولكن لا مانع أن تكون من تصرف الألسنة الفرنجية في الاسم كما هو معهود منها اليوم مع هذا الاختلاط العظيم، فكيف به قبل؟ وعلى كل حال فهذا التعليق القصير ربما يلقي بصيصًا من النور على هذا البحث الطويل.

ومن المرجح أن هذا التعقيب لم يلق قبولاً، أما الرد الأكثر علمية فإنه جاء بتوقيع حسن باشو، ونشر في الشهر التالي (مارس ١٩٣٥) ويحمل تفصيلات كثيرة، ويأتي في هذا الرد:

هل لامرتين من أصل عربي؟

.. سيدي الأستاذ... الزيات.

كنت قد قرأت في العدد التاسع والسبعين من (الرسالة) الغراء كلمة عن اتصال نسب شاعر الحب والجمال (لامرتين) بالعرب، وحثكم الباحثين على التنقيب عن هذه

الصلة، لعلهم يوفقون إلى إضافة هذه العبقرية الخالدة إلى عبقريات العرب. وإذ كنت اقرأ في (حياة لامرتين الغرامية Le Vie amoureus de Lamartine للكاتب المعروف (لو كادو بريتين Lucas- Duberton صفحة ١٢٨، عثرت على نبذة لها علاقة متينة بذلك الأصل الذي يعترف به (لامرتين) نفسه بصراحة وثقة. وهأنذا أرسلها إلى (الرسالة) لعل فيها شعاعًا يضيء طريق البحث عن ذلك النسب. قال لوكا:

«لما نفض لامرتين يده من السياسة تسنى له سنة ١٨٣٢ أن يحقق أمنية طالما فكر فيها: وهي السفر إلى الشرق، لا حاملاً حقيبته وعصاه كما قد سبق له أن تخيل، بل على سفينة شراعية جميلة... هنالك نساء الشرق أَرَيْنَهُ في عيونهن كما يقول: «أشعة من المخمل الرطب لم يكن قد رآها في عيني امرأة» ففعلت بلبِّه تلك العيون ما تفعل الخمر. لذلك كان في قصصه التي عاد بها من سفره تلك اللهجة الحادة، وذلك الخيال الذي نجده في قصائد (أريوست Arioste) : من هذا النوع قصيدته التي بارى بها شاعرًا من الصحراء في الإشادة بمحاسن الآنسة الرائعة الجمال (مالاجمبا Malagamba). وأصدق هذه القصص على ما يظهر قصة زيارته (لليدي استير استنهوب Lady Esther Stanhope) تلك الإنجليزية المحاطة بالأسرار التي كانت تعيش كسلطانة في قصرها القائم على أحد منحدرات لبنان، وقد تنبأت له بمكانة رفيعة وحظ عظيم؛ فسر بنبوءتها وارتاح إلى تصديقها. وأهم ما لفت نظر السلطانة في الشاعر تفاخره الساذج. وإليك حديثها عنه إلى زائر آخر هو الأمير (دي بويكلير موسكو Puckler- Muskau) قالت:

«بينما كان لامرتين يمد قدمه ليلفت نظري إلى جمال تقوسها، بينت له أن ذلك الشكل ينم عن أصل عربي، يدل عليه أيضًا بريق عينيه ورسم حاجبيه:

Comme Lamartine allongeait obstinément un pied avec l'intention manifeste d' en faire admirer la cambrure, je lui fis croire que cette comformation révélait une origine arabe, indiquée en outre par l'éclat de ses yeux et le dessin de ses paupiéres.

فأعجب بفراستي واستنتاجي؛ ثم روى لي كيف أن مائة وخمسين عربيّاً أسروا في غزة أيام الحروب الصليبية، فقيدوا إلى فرنسا واستوطنوا (ماكونيه) حيث أسسوا قريتين، وشادوا القصرالذي يسكنه لامرتين نفسه:

Et il explique qu' au temps des croisades cent cinquante arabes prisonniers de Gaza avaient été emmenés en France et s' étaient établis dans le Mâconnais au ils avaient construit deux villages et le château que lui- meme habitait.

ثم تابع قائلاً: كان عليك أيضًا أن تلاحظي فيَّ خاصة وراثية شوهدت في الإسكندر، وهى ميل الرأس قليلاً نحو الكتف... أليس هذا هو طابع البلاد الجنوبية؟... فأجبته بالتأكيد:

"Vous devez avoir aussi remarqué chez moi une particularité congénitale qu' on a observe chez Alexandré et qui consiste á pencher légérement la têtc vers une épaule. Ceci n'est il pas un cachet des pays du sud?... Je répondis affirmativement".

وكأن هذا الانتساب لم يرق للكاتب الفرنسي (لوكا) فقال فيه:

«إن هذا الحديث ينم عن حقد (ليدي استير) على الشاعر الذي أدرك ببصيرته الثاقبة (ما وراء تلك المظاهر الخلابة التي كانت الليدي تحيط نفسها بها، من دسائس سياسية)».

وليس في فراسة (ليدي) ما ينم عن حقد أو تشفٍّ؛ وإنما هو استنتاج استنتجتْه من ملامح الشاعر وتكوين بعض أعضائه، وكانت فيه جد موفقة، لأنه صادف ارتياحًا من لامارتين، فقص عليها من نبأ الأسرى ما يؤيد فراستها ويدعم هذا الانتساب الذي يفتخر به، وبرهن لها أن القرية التي يسكنها والقصر القديم الذي توارثته أسرة لامارتين هما من بناء أولئك الأسرى العرب.

ويروى أن لامارتين حاول مرة أن يبيع هذا القصر الأثري ليوفي ديونه، فأبت عليه ذلك ابنة أخته فالنتين: (Valentine)، وآثرت بيع معظم أملاكها حتى لا يفرط في هذا التراث الثمين، تراث أجداده العرب»[١].

(١) يلاحظ أن توقيع الكاتب – وكذلك غلاف المجلة – حمل اسم حسن باشو (بالواو) إلا أنه ذكر في مقالتي رجاء النقاش ود. منير العجلاني على أنه حسن باشر (بالراء).

لامرتين والعرب: مقالة نشرها أديب من حلب، هو: محمد غالب سالم، في مجلة الهلال (فبراير ١٩٧٧) ثم عاد فنشر في المجلة ذاتها (ابريل ١٩٧٧) مقالة أخرى بعنوان: لامرتين والعرب مرة أخرى، وصاحب المقالتين يميل إلى فكرة أن الشاعر ينسب إلى بلد صغير قرب حلب اسمه مرتين Martine وأن بحلب أسرة كبيرة يقال لها آل مرتين، مع الإشارة إلى أن La الفرنسية تعنى النسب إلى العائلة؛ وبذا يكون Lamartin من آل مرتيني أو على الأقل من بلدة مرتين!

أما المقالة الثانية فاستعان فيها بمقالة أسبق للأستاذ رشاد رستم، نشرت بالعدد الثاني عشر من مجلة الثقافة القاهرة (١٩٣٩) وفيها، في معرض الحديث عن عروبة لامارتين:

الأستاذ المشرف على التحرير: أشكركم على نشركم الكلمة التي أرسلتها إليكم بخصوص نسبة الشاعر الفرنسي الكبير «لامرتين» إلى بلدة مرتين السورية وذلك في عدد شباط «فبراير» ١٩٧٧ من الهلال.

والحقيقة يا سيادة الأستاذ أن العرب أمة مظلومة اجتمعت عليها عناصر ظالمة، وقوية و«فظيعة» أيضًا. نالت من كفاءتها وغطت على معالم مدنيتها وحضارتها... وشوهت حقيقتها وفضائلها... ونحمد الله على وجود أمثالكم ممن نذر نفسه للعمل على إعادة وجهها الحقيقي المشرق والزاهر.

ومن غريب الصدف، أنني كنت أقلب أعداد مجلة «الثقافة» المصرية التي كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر، وقد رأيت في العدد -١٢- من هذه المجلة سنة ١٩٣٩، مقالاً للأستاذ راشد رستم وفى هذا المقال ومع ما أرسلته إليكم سابقًا، أعتقد بأننا قد تمكنا من إيجاد الحلقة المفقودة في نسبة أو نسب الشاعر لامارتين للعرب.

أورد الأستاذ رستم، حفظه الله، حججًا دامغة عن أصل «لامارتين» ولكنه نسب الاسم إلى «ماردين» المدينة التركية الآن الواقعة شرقي الأناضول. ولا بأس من أن نورد

هنا ما قاله الأستاذ رستم من إثباتات وحقائق، عن أصل هذا الشاعر العبقري. نستطيع بها تحديد النسب الصحيح على ضوء ما أتى به من براهين... قال الأستاذ رستم: كان الشاعر لامرتين، هو الشاعر لامرتين، سواء كان في فرنسا أم في غير فرنسا.

لقد قال بعض المتكلمين عنه: إنه لو لم يولد فرنسيًا كاثوليكيا لكان مسلمًا حنيفيّاً...

ثم يسرد الكاتب وصفًا لحياته في الشرق، وفى لبنان بصورة خاصة، فيقول: إنه فقد ابنة له، ودفنها في ذرى لبنان... حيث الأرز الخالد.

ثم جاء إلى وصفه بالذات، فقال إنه كان يحب الخيل والفروسية، وكان وهو يطوي بطاح الصحراء يقول: إن جسمه مثل روحه، يطلب الحرارة والضياء، وأنه ابن الشمس وجوّاب البقاع.

ثم يقول: إن الشاعر نفسه كان يقول: إنه من سلالة عربية، وأن أجداده نزلوا جنوب فرنسا مع من نزلوا من العرب الفاتحين. وينسب الكاتب هذا القول لكتاب عن لامرتين، ألفه الكاتبان «كلوجه وفيفدال". ثم يقول: ولا يريد مؤرخو الشاعر إلا تصديقه، وإن كانوا يتركونه في تمحيصه، ويقولون: إنه من الصعب الاستدلال على آبائه، إلا من القرن السادس عشر.

أما هو «يعني الشاعر» فيقول إن اسم عائلته قد تحرف وتغير قصدًا؟!..

جاء في مذكرات «كونديه» سنة ١٥٧٢ اسم عائلة «آل مرتين» ضمن العائلات التي أمر «كلود دي جيز» بأن تؤخذ منها «كميات وفيرة من المؤن والأطعمة» وأن آل مرتين، كانوا في أوائل القرن السادس عشر يقيمون في جهة «كلوني» بالجنوب الشرقي من فرنسا.

وعرف عن آل مرتين في ذلك العهد، أنهم من أنصار التجديد، في الحركة الدينية. وأنهم بذلك كانوا ضد «كلود دي جيز» المذكور، الذي كان قسيسًا لأبرشية «كلوني».

على أنهم مع معارضتهم لذلك القسيس، فقد تقرب أحد أبناء «آل مرتين إلى الأبرشية في «كلوني» وقد انتخب عضوا في البرلمان بباريس، وسافر إليها سنة «١٦٥١» ودخل في زمرة النبلاء والأشراف.

ويقول الكاتب «بيير دي لاكروتيل» أنه حوالي هذا الوقت عمد أحد جدود لامرتين، إلى تحويل اسم العائلة من آل مرتين. إلى (دولامرتين) حتى يسري الاسم مسرى الأسماء الفرنسية النبيلة... وقد تم ذلك بتغيير في سجل النفوس... وهكذا صار اسم العائلة: «دولامرتين».

ويعلق الأستاذ رستم على كلمة «آل مرتين» بقوله... في الأسماء العربية كثير مثل هذا الاسم: آل سعود، آل حمود... ولكن لفظة مرتين هذه ما معناها؟!

لعلها ليس لها معنى... أو هي تحرفت من «ماردين»... أو أن الاسم كله «المارديني» نسبة إلى ماردين... بلدة بين جنوبي الأناضول الشرقي، وشمال سوريا.

والآن:

فقد أصبح الأمر جليّاً، بعد أن ذكر المؤرخون حقيقة أصل هذا الشاعر، كما أنه هو نفسه كان يؤكد على أرومته العربية وأصله الشرقي.

وإن التساؤل الذي ذكرته للأستاذ النقاش قد توضحت خفاياه وزال اللبس فيه. وأن الحلقة المفقودة في إثبات عروبة لامرتين قد وجدت فهو عربي الأصل ومن بلدة مرتين السورية.

وغني عن الذكر أن هذه المقالة الثانية لمحمد غالب سالم تمدنا، علاوة على رؤية صاحبها، بمقتطفات من مقالة سابقة كتبها راشد رستم في مجلة الثقافة المصرية ١٩٣٩ حول الموضوع ذاته.

ولعله من المناسب هنا أن يشار إلى مقالة لحبيب جاماتي عنوانها: لامارتين أنصف الشرق، نشرها في مجلة الهلال (مارس ١٩٣٣)، وكذلك لمقالة د. منير العجلاني المنشورة بالمجلة العربية (١٣٩٧هـ - ١٩٧٦م) بعنوان: لامارتين أمير الشعراء الفرنسيين: هل كان من أصل عربي، وإن لم تضف جديداً إلى ما سبق.

ولعل أفضل ما تختم به هذه القضية ما نشره الأستاذ رجاء النقاش في كتابه: عباقرة، ومجانين[١] عن (لامارتين وأصوله العربية)، وهذا الفصل سبق وأن نشره في مجلة الهلال (باب ملاحظات ثقافية)، ورجع فيه إلى شيء مما نشر في مجلة الرسالة وغيرها، وفيها يقول :

إن النقاد الغربيين «الذين ينكرون الأصل العربي للشاعر لامرتين هم الذين لا يستطيعون أن يتغلبوا على عقدة فى نفوسهم تقول لهم: إن كل ما ليس أوروبيّاً لا قيمة له ولا أهمية، وأن العبقرية الإنسانية احتكار لأوروبا وليس لغيرها من الشعوب أن تفكر أو تحلم بأن يكون لها نصيب من العبقرية والنبوغ. وتلك عقيدة حضارية كامنة فى عدد من العقول الغربية..»

ويطول الحديث في هذا الشأن، مما يسمح بأن يعد حوله كتاب مستقل، لكننا نكتفي بهذا القبس.

من تداعيات لامارتين عند العرب[٢] :

هذا موضوع آخر ينفسح فيه القول حتى ليصلح لأن يكون مجالاً لأطروحات جامعية، وكتابات متعمقة مستفيضة، وبحسب هذه الإضاءة أن تشير، على سبيل المثال، لهذا الفصل الجميل الذي كتبه د. عبد الرحمن بدوي في كتابه (الحور والنور)[٣] تحت عنوان : فصل إلى سلوى، في مهد غرام لامارتين، وفيه يخاطب سلوى (؟) قائلاً :

«لك أن تخيلي إلى نفسك أنك ألفيرا، أما أنا فأستحلفك بما تؤمنين به ألا تتوهمينى رفائيل ...» ثم يبدأ الرحلة إلى البحيرة ليقول :

(١) الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ١٩٦٩، ص١٧٥، وما بعدها.

(٢) تركنا لدرس مستقبل تناول تعبير الشعراء العرب عن إعجابهم بلامارتين.

(٣) يراجع : الحور والنور، ط. الكويت ١٩٧٩م، الفصل الحادي والعشرون، ص ١٦٤ – ١٨٧ .

«وقفت أمام البحيرة، فغمرتني غيوم الهموم، فكل ما حولي مصبوغ باللون الرمادي الكابي : الأمواج والمياه في البحيرة، والآفاق الفسيحة المنبسطة عند سفوح الجورا، مع أن الشمس ساطعة، والصيف قائظ، وما إن أبصرت هذه الألوان حتى استطعت أن أفسر لنفسي لون الشعور الذي ينتابني دائمًا حينما أقرأ تأملات لامارتين الأولى ...»[١].

ومن هذه التداعيات قصيدة لشاعر تونسي (محمد خلوصي) كتبها بعنوان: على ذكريات لامرتين : وقفة على بحيرة بورجي، وفيها تمتزج أصداء قصيدة البحيرة مع المشاعر التي جاشت في صدره وهو يتأمل في المرئيات من حوله فهتف من أعماقه :

قف هاهنا واسأل حواشي الماء
تنبئْك فورًا أصدق الأنباء
هذى بحيرة شاعر جعل اسمها
بقريضه من أخلد الأسماء
نزع البقاء وإنما أبقى لها
مع ذكره ذكرًا بغير فناء

ثم تمضي القصيدة في حديثها عن لامارتين وحبه ورحيل محبوبته .. والنص يتسم بالحيوية والسلاسة، وهو يعكس حالة من التناص الذي يتمثل (بحيرة) لامارتين خير تمثيل[٢].

أما ترجمات شعره فهناك إجماع على أن ترجمة أحمد شوقي لقصيدة «البحيرة» أولى الترجمات العربية لهذه القصيدة، بل ربما لما عداها من شعر لامارتين، كما أن هناك إجماعًا على أن هذه الترجمة عدت عليها عوادي الزمان، والخبر عنها يأتي في تصديره للطبعة القديمة من الشوقيات، والتي يقول فيها:

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٢ .

(٢) وصلت إلينا القصيدة عن طريق مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالكويت.

«ثم نظمت روايتي (علي بك أو فيما هي دولة المماليك) معتمدًا في وضع حوادثها على أقوال الثقاة من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا وبعثت بها قبل التمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي السابق فوردني منه كتاب باللغة الفرنساوية يقول في خلاله : «أما روايتك فقد تفكه الجناب العالي بقراءتها وناقشني في موضع منها وناقشته وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح. ويجب أن لا تشغلك دروس الحقوق التي يمكنك تحصيلها وأنت في بيتك في مصر عن التمتع من معالم المدينة القائمة أمامك وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضيء به الآداب العربية» فصادفت هذه النصيحة العالية هوى في فؤادي فترجمت القصيدة المسماة «بالبحيرة» من نظم (لامرتين) وهي من آيات الفصاحة الفرنساوية، ثم أرسلتها إلى الباشا المشار إليه في كراس ليطلع الجناب الخديوي عليها، وإذ كنت لا أتخذ لشعري مسودات رجوت أني أجدها عنده بعد العودة إلى مصر ثم عَدَت دون ذلك عواد.

ويضم كتاب «الشوقيات المجهولة»(*) مقتطفات من حديث أجراه سليم سركيس مع أحمد شوقي يسأله فيه :

«– وهل ترجمت شيئًا من شعر الإفرنج ؟

– إنني أجل الترجمة وأستعم فوائدها، ولكن نفسي لا تميل إلى التعريب، بل ميلي كله إلى الخلق والإنشاء، هذا مع كلفي بقراءة كتب الآداب الفرنسوية، وعلى الأخص تآليف فكتور هوجو وموسيه ولامرتين، ولقد كدت أفني هذا الثالوث ويفنيني»(!)، وإذا كان الشاعر قد أضاع على التاريخ الأدبي هذا النص المبكر من ترجمة «البحيرة» فإن ديوانه أبقى إشارة تستحق الذكر، وهذه الإشارة تأتي في شعر الصبا، أي قبل السفر إلى باريس؛ وبالتحديد سنة ١٨٩٥، ففي وصفه لقصر المنتزه :

منتـــزه العـــبـــاس للمـــجـــتلى
آمـنــــــــت بـالـلـه وجـنّـاتِــــــــهِ

(*) راجع د. محمد صبري (السوربوني) : الشوقيات المجهولة، ج١، ص ٢٦، وكذلك (الشوقيات).

يأتي هذا البيت :

وتـرعـــــــــــــة لـو لـم تـكـن حـلـوة

أنـسـت لمـرتـين بـحــــــــــيــــــــــراتِـه !

ومن المؤكد أن (البحيرة) أشهر قصائد لامارتين بلا منازع، وقد نقلت للعربية في قرابة عشرين ترجمة مختلفة[1] – مما يملأ ديوانًا مستقلاً – ولا سبيل هنا لتحليل هذه الترجمات، وبيان مدى مطابقتها للفصل ... إلخ، على أن كافة الاعتبارات تقود إلى التوكيد على أنها أكثر القصائد الغربية اقترابًا من الوجدان العربي، بدليل هذا العدد الضخم من الترجمات، والذي يعلو على عدد ترجمات أي نص شعري آخر (بما في ذلك قصيدة أربعاء الرماد لإليوت).

وهناك قصائد أخرى للامارتين تعددت ترجماتها – على نحو ما سيرى القارئ في مجموعتنا هذه – مثل قصيدة (الخلود) ومثل قصيدة العزلة (التي نقلت أحيانًا تحت عنوان الوحدة) والمساء، والمعبد، (التي نقلت كذلك تحت اسم: الهيكل) والخريف والوادي – والتي نقلت أحيانًا تحت مسمى : الوادي الصغير...

(١) ربما تتجاوز ترجمات (البحيرة) هذا العدد بكثير، وقد دفع الحرص على أن يصدر هذا الكتاب في حينه إلى عدم الانتظار لوصول مواد أخرى في هذا الصدد، بعض منها في حوزتنا لكنه غارق بين الأوراق، فمن ذلك ترجمة (مخطوطة) قام بها أستاذان جليلان من أساتذة دار العلوم بالقاهرة هما د. رجاء عبد المنعم جبر ود. علي عشري زايد (رحمه الله) في أثناء مقامهما بباريس نحو ١٩٧.م كذلك هناك ترجمة أخرى مخطوطة أعدها د. محمد خضر عريف (الأستاذ – حاليًا) بكلية الآداب جامعة الملك عبد العزيز بجدة في أثناء دراسته بمكة المكرمة قبيل سنة ١٩٨٠م وهناك ترجمة للدكتور زهير مغامس أوردها كتابه الصغير عن بحيرة لامارتين وضمّنه أيضًا ترجمة للدكتور جمال الدين الرمادي.
وتشير مقالة هجرة النصوص وهجرة القراءة والتلقي (من شبكة الإنترنت وبيانها سيرة في هذه المقدمة) إلى ترجمات أخرى لزكى نجيب محمود ولمحمود المحروق ...إلخ، فضلاً عن ترجمة شعرية يشار إلى أنها لشبلي ملاط، وهذا قليل من كثير مما يمكن أن يقود إليه البحث.

وأما المترجمون لشعر لامارتين فهم جمهرة من أدباء وشعراء، بعض منهم بالغ الشهرة، مثل أحمد حسن الزيات صاحب (الرسالة) – التي أفسحت العديد من صفحاتها للحديث عن صاحب (البحيرة) ولترجمة شعره، وهناك مترجمون شعراء أصدروا مجاميع كاملة حول شاعرنا، ونعني على وجه الدقة الشاعر السكندري : محمد أسعد ولاية، صاحب مجموعة مختارات من قصائد لامارتين، فضلاً عن نصوص ترد هنا وهناك في بعض مجموعات الشعر الفرنسي المترجم مثل مجموعة العوضي الوكيل : أعلام الشعر الفرنسي وطرائف من آثارهم، ومجموعة د. رائف بهجت : روائع الشعر الفرنسي، ومجموعة شفيق مقار: شيء من الشعر ...إلخ.

وإذا كان السياق تضمن اسم الزيات على اعتبار أنه من المشاهير، فإن هناك أسماء أخرى أقل بريقًا، ولعل التأمل في أمرها يفضي إلى إنصافها مثل جورجي نيقولاوس الذي نقل العديد من قصائد لامارتين منذ أواخر العشرينيات من القرن الماضي ونشرها في (المقتطف) و(العصور)، وهذا مجرد اسم من بين جملة أسماء.

وبالنسبة للشعراء؛ فإن اسم أحمد شوقي يأتي في الطليعة كما قلنا، وهناك آخرون من المشاهير مثل علي محمود طه وإبراهيم ناجي ونقولا فياض وأبي الفضل الوليد (إلياس طعمة) والعوضي الوكيل وإلياس أبي شبكة، والملاحظ – في المقابل إن هناك أكاديميين لهم مكانتهم أقبلوا على ترجمة قصائد للامارتين، مثل طه الحاجري صاحب التحقيقات والدراسات المتعمقة حول الجاحظ، ود. محمد مهدي البصير، وعبد الرزاق حميدة، ومحمد غلاب، ومحمد مندور، ومحمد غنيمي هلال، وإيليا حاوي، وصلاح الدين المنجد، وعبد الرحمن بدوي... إلخ.

وبالنسبة للصحف والمجلات، فإن (الرسالة) تأتي في طليعة المجلات التي احتل فيها لامارتين مكان الصدارة من حيث وفرة النصوص والدراسات حوله، يلي ذلك جريدة السياسة الأسبوعية، ثم مجلات مثل المقتطف والمجلة العربية، حتى نصل – أخيرًا – إلى ما رصدته شبكة الإنترنت من مواد وكتابات حول لامارتين ...

هذه خطوط عريضة حول الشاعر وشعره في مرآة الأدب العربي، وكما ذكرنا قبلاً؛ فإن إدامة النظر في هذه النصوص ال (لامارتينية) حريٌّ بأن يفتح الباب على مصراعيه لفيض من الدراسات الأدبية واللغوية والمقارنة، مما يسهم في إثراء أدبنا الحديث من كافة زواياه(*).

والله الهادي إلى سواء السبيل

محمد زكريا عناني

الإسكندرية : ٥ / ٧ / ٢٠٠٦

✱✱✱✱

(*) أود أن أعرب عن جزيل شكري لكل من عاونني في هذا العمل، وأخص بالذكر الأستاذة نهى حمدي المعيدة بكلية التربية والشاعر عمر حاذق كما أعبر عن خالص تقديرى للسيدة رحاب فؤاد والأستاذ أحمد عبد الرازق اللذين أشرفا على الطباعة بكل الدأب والإخلاص.

النصوص في ترجماتها العربية

البحـــيرة (*)

لـيت شـــــعــــــري أهـكذا نـحـن نمضــــي
فــي عـــــبـــابٍ إلى شـــــواطئ غُـــــمْضِ
ونـخــــــوض الـزَّمـــــــان في جُنــــح لـيـــــلٍ
أبـــــــديٍّ يُضْـنـي الـنـفـــــــــوس ويـنـضِـي
وضـــــفـــافُ الحـــيـــاة ترمـــقـــهـــا العـــيـــ
ن فـــــــبـــــــعـضٌ يمـــــر في إثـر بـعــــض
دون أن نمـلـك الـرُّجـــــــــوع إلـــى مـــــــا
فـــــــات مـنـهـــــا ولا الـرُّســـــوَّ بـــــأرض

حـــــدِّثـي القلب يا بحـــــيــرة مــــالـــي
لا أرى (أولفـــــيــر) فـــوق ضـــــفـــــافكْ
أوشـك الـعـــــــــام أن يمـــــــرَّ وهـــــــذا
مـــــوعـــــدٌ للِّقــــاء فـــــي مــــصطافـــــكْ
صـــــخـــــرة العـــــهـد ويك ها أنَا عُـــــدتْ
تُ فـــــمـــــاذا لديـــــكِ عـــــن أضـــيـــافكْ

(*) ترجمة «علي محمود طه» (وتعد من أشهر الترجمات لقصيدة البحيرة)، ونشرت أول ما نشرت بجريدة السياسة الأسبوعية بالعدد ٣٨ من السنة الأولى (نوفمبر ١٩٢٦) ونعت المترجم في ذيل القصيدة بأنه «مهندس مباني الحكومة بمديرية الدقهلية، كما جاء في صدر النص عرض مطول للملابسات على ما هو معروف». ونشرت القصيدة بعد ذلك في آخر الديوان الأول للشاعر (الملاح التائه) ويمكن مراجعته كذلك في الأعمال الكاملة ديوان (علي محمود طه)، ص ١٦٥ وما بعدها.

عـــدْتُ وحـــدي أرعى الضـــفـــافَ بـعينٍ
ســفكتْ دمــعَــهــا اللّيـــالي الســـوافكْ

كنــتِ بـالأمــس تـهــــدرين كـــــمـا أنْــ
تِ هـديرًا يـهــــــزُّ قـلــــب السكـــــونِ
وضـــفـــافٌ أمـــواجـــهــا يتـــداعـــيْـ
نَ علـى هـذه الـصـــــخــــور الجـــونِ
والـنَّســــيــم الـعـلـيـــل يدفـــع وهـنًا
زبـدَ المـــــوج لـلـرُّبـــــى والحــــــزون
ملقـــيًـــا رغـــوها علـــى قـــدمـــيــهـــا
ليِّن اللمـــس مــســـتــحَب الأنيـــنِ

أتُــــرى تذكـــــرينَ ليـــلة كُـنَّـــا
منكِ فـــوق الأمـــواج فـــوق الضِّـــفـــافِ
وســــرى زورقٌ بـنــــا يتـــــهـــادى
تحت جنح الدجى وســـتـــر الـعـــفـافِ
في سكونٍ فليــس نســـمـــع فـــوق الـ
ـمــــوج إلاَّ أغــــانـــــيَ المجـــدافِ
تتـــلاقــــى على الربـــى والحـــوافي
بـأناشـــيـــد مـــوجــك الـعــــزّافِ

وعلى حــــيــــن غِـــرّة رنّ صـــوتٌ
لـــم يُعَـــوّد ســمـــاعــــه أنســـيٌّ
هبط الشـــاطيءَ الطروبَ فـــمـــا يُسْــ
ـمـــع فـــيــــه للـهـــاتفـــاتِ دويُّ

وإذا الـلـيـــــــل ســـــــاهمٌ سكن الـنـــو
ءُ إلـيـــــــــه وأنـصـــــــت الـلـجـــــيُّ
يتلقى عن نبـــــأة الصـــــوت نجـــوى
كـلـمـــــــــــاتٍ ألـقـى بـهـــــــــن نجـــــيُّ

يـا زمـــــانًا يمُرّ كـــــالطيـــر مـــــهـــــلاً
طـــائـرٌ أنـت ؟ ويـك ! قـف طـيـــــــــــرانَـكْ
أهنـاء الســـــاعـــــات تجــــري وتـعــــدو
نـــــا عطاشًـــــا فـــــقـــــفْ جــــريانــــك
ويك دعـنـا نمـرحْ بـأجــــــــــمـــــــل أيّــا
م ونـلـقـى من بـعــــــد خــــوفٍ أمـــــانك
وإذا نـحـن لـذة الـعـــــــيــــــش ذُقـنـــــا
هـا ومــــــرّت بـنــــــا فـــــدُر دورانــــك

بَيْـــدَ أنَّ الشــــقـــاء قــــد غَـــمَـــر الأر
ض وفـــاض الوجـــود بالتــــاعـــســــينـا
كُلُّهُمْ ضـــــــارعٌ إلـيـــــــك يرجِّـــــــيـ
ـك فـأسـرعْ أسـرعْ إلـــــى الضـارعـينـــا
وافــتـــرس مـــشــقــيـــاتِ أيامـــهـــم وأمـ
ـض رحــمـي تطحن الشــقـــاء الطحــونا
رحـــمـــــةً فـــاذكـــر النفـــوس الحـــزانـــى
وانْس يـا دهـرُ أنفــس الـناعـــمـــيـنـــا

عـــبـــثًـــا أنشـــد البــقـــاء لعـــهـــدٍ
يـفـلـت الـيـــــوم مـن يـــــــدي ويفــــــرُّ

وســــــويعــــــات غــــــبطةٍ مــــــا أراهــــــا
ووشـــــيكًــــا مــــــا تنقـــــضــــي وتمــــــر
وأنــادي يــا لــيـلــةَ الـوصـــــل قَـــــــرِّي
إن بَعــــــد السُّــــــرَى يطيـــــب المقــــــر
أســـــفًــــا للصِّـــــبــا وغـــــرّ الليــــالـــي
ليــــس يبــــقي على صِـــبــــاهــن فــــجـــر

فلنحبّ الغــــــداة ولنحْــــي حــــــبّـــــاً
ولنكن في الحــــيـــاة بعـــضًـــا لبــــعــضِ
ولنســـــارع فنقـــتــــفي إثـــر ســـاعــــا
تٍ فـــقــــد تؤذِن النـــوى بالتــــقــضِـــي
إننَا في الحــــــيـــــاة في عــــــرض بحــــرٍ
ليس نلقي المرســـــاة فــــيـــــه بــــأرض
مـــــا بـــــه مــــرفــــأٌ يَبِـــيــــن ولكِــــن
نحن نمضي في لجـــــــةٍ وهــو يمضـــــي
أكــــــذا أنتَ أيّـهــــا الـزمــــــن الحـــــا
قــــد تغــــتــــال نشــــوةَ اللحظــاتِ
حــــيـــــث يزجى لنا الســـــعــادة أمــــوا
جًــــــا من الحـــــب زاخـــــــر اللّجـــات
أكــــــذا أنت ذاهب بليـــــالـــي الصَّـــــ (م)
فــــــو عنّا ســــــريعـــــة الخطـــــوات
أكــذا تنقــــضــــي حـــــلاوة نعــــمـــــا
هـــا كـمــا ينقـضــي شــقــاء الحـيــاة

كـــيف ؟ حَـــدِّث : أغـــالـهـا منك خــــوفٌ
في أبيـــــد الـزّمــان حــــيـــــث طواها

وَيْــــكَ قــــل لـــي أليس نمـلك يومًــــــا
أن نـراهـــا أمَـــا تَـبِــــيــــن خُـطَاهـــا
أتراهـــا ولَّـــت جـــمـــيـــعًـا ولـمَّـــا
تُـبْـقِ حـــــتـى آثـــــارهـــا أتـــــراها
أوَ ذاك الـدهـر الـذي افْــــــتَـنّ فـــي صَـــوْ
غ صـــبـــاهـا هــــو الذي قـد مــــحـــاهـا

أيّ بيــــــدِ الـزمــــان والعـــــدم العـــــا
تي غـــريقـــيـــن في ســــكونٍ وصَــــمْتِ
أيْ عــــمــــيـــق اللّجـــات مـــاذا بأيـــا
م صـــبـــانـــا مـــاذا بهــــن صنعــت
حـــدثيني أمـــا تعـــيـــديـن مـــا مِنْ
سكـــرات الغـــــرام مِنّا اخـــــتطفـت
أَوَ مـــا تطلقـــينهـــا مـــن دياجـــيـــ
كِ ؟ أمـــا تبــعـــثـــينهـــا بعـد مـــوت

أنتِ يـا هـذه البــــحــــيـــرة مـــاذا
يـكـتـم المـــوجُ فـــــيـــــك والـشـطـــآنُ
أيـهــــا الـغــــــابــــة الظليلـــة ردِّي
أنت يـــا من أبقى عليـــــهـــا الـزَّمـــان
وهـو يـسـطـيـعُ أن يُجَـــــدِّدَكِ حــــــسنًـا
احــــفظــي لا أصـــابـــك النســـيـان
قَلّ حِـــــفْظًا أن تذكـــــري ليلـــة مـر
رَتْ وأنت الطبـــيـــعـــة الحـــسّـــان

ليكن منك يا بحـــــيـــــرة مـا لَجَّ (م)
بك الصــــمت أو جنون اصطخـــابِكْ
في مـــغــانيك حـــاليـــاتٌ تـراءى
ضـــاحكاتٌ على ســفــوح هضـــابك
في مـــروج الصنوبر الحـــوِّ تهـــفــو
ســـابغـــاتُ الأليـــاف حـــول شـــعـــابك
في نتـــوءِ الصـــخـــور مـــشـــرفـــة الأعــ
ناق بيـــضــا تطل فـــوق عـــبـــابـــك

ولْيكن في العُــــبــاب يهْــدِر أمـــوا
جًـا علـــى شـــاطئـــيك مـــثل الرُّعـــودِ
في انتـــحـــاب الرياح تعـــول في الود
يان إعـــوال قَلْبِـــــيَ المفـــــؤود
في صــــــدى الجـــدول المـــوقع أنّا
تُ حــــشـــاه بالجنــــدل الجلمــود
في شــــذاك الســـرِيّ ينشق منـــه ال
قلب ريّا فــــردوســـه المفـــقـــود

وليكن في النســـيم مـــا هبَّ ســـاريــ
ـهِ يجـــوبُ الشطآن نحـــوكِ جَـــوْبَـا
في جــــبين النجم اللجــــينيِّ يلقـــي
فــضـــة الضـــوء في مـــيـــاهـــك ذوْبـا
وليكنْ في شـــتـــيت مـــا تَسْـــمـــع الأذْ
ن وفــــيـــمـــا نـــراه عـــينًا وقلبـــا
ليكنْ هاتفٌ من الصــــوت يتلـــو :
« قـــد أحـــبَّـــا وأخلصـــا مـــا أحـــبَّـا »

****

البحيرة(*)

من شـــاطئٍ لشـــواطـــئٍ جُـــدُدِ
يـرمـــي بنـــا لـيلٌ مـــن الأبـــدِ
مـــا مـــرَّ منه مـــضـــى فلـــم يَعُـــدِ
هـيـــهـــات مـــرسى يومـــه لـغـــدِ !

سنةٌ مـــضت ! وخـــتـــامـــهـــا حـــانا
والـدهـــر فـــرَّق شـــمـلـنـا أبـــدا
نـاجِ البـــحـــيـــرةَ وحـــدك الآنـــا
واجلس بـهـــذا الصـــخـــر منفـردا !

قل للبـــحـــيـــرة تذكـــريـــن وقـــد
سكـن المســـاء ونحـــن باللـــجِّ
لا صـــوت يُســـمع فـي الـدنى لأحَـــدْ
إلا صـــدى المجـــداف والمـــوجِ

فـــإذا بصـــوتٍ غـــيـــر مـــعـــتـــادِ
هـزَّ السكون هـتـــافـــه الـعـــذْبُ
أصـــغَى الـعـــبـــابُ ورجّـع الـــوادي
أصـــداءه وتـنـــاجـــت الـسُّـــحْـبُ

(*) ترجمة «إبراهيم ناجي»، ونشرت أول ما نشرت في السياسة الأسبوعية العدد (٣٩) من السنة الأولى (ديسمبر ١٩٢٦)، ثم ظهرت ضمن ديوانه (وراء الغمام) وهو بالأعمال الكاملة (إعداد حسن توفيق)، ص ٢١٨ وما بعدها.

يا دهرُ في رفقٍ ولا تدر :
ساعاته في هينةٍ وقفي
حتى تتاح هناءة العمر
وتطول لذّتها لمُقتطِف

هلاًّ التفتّ لذلك الكونِ
وعلمت كم في الناس مِنْ باكي
يدعوك خذني والأسى المضنِي
خَلِّ المُمتَع وامْضِ بالشاكي

هذا النعيم وهاته المِحَنُ
يتنافسان الدهر إقلاعا
فبأيّ عدلٍ أيها الزَّمنُ
تتشابه الحالان إسراعا

يا أيّها الأبد السحيق أجب
وتكلّمي يا هُوَّةَ الماضي

ما تصنعان بأشهُرٍ وحقب
ونعيم عمرٍ غير معتاض

ناج البحيرة والصخور وعُدْ
فاستحلف الأغوارَ والغابا

قل ! صُنَّ ذكر غرامنا فلقد
صِينَ الشّباب عليك أحقابا

وليـــــبق يا هـذي البـــــحـــــيـرة فـــي
حـــــــــاليـــك ثـائـــــرةً وهــــــادئـةً
فـي بـاســـــــقٍ لـلـمـــــاء مـنـعـطـــــف
فـي رائـعـــــات الـصـــــخـــــــر نـاتـئـة

في عـــابـــر النســـمـــات مـــرتجـــفًـــا
في الـنجم فــــضّض صـــفـــحـــة المـاء
فــي الـريـــــح أنَّ أنــيـنـــــه وهـفـــــا
فـي الغـــــصن نَفَّسَ حَــــرَّ أحــــشــاء

في الجــــو مـــعــــتـــبــقًـــا بـــرَيَّاكِ
خطرت مـــلاعــبـــة رفـــيق صـــبـــا
فــي كـلِّ هــــــذا هـاتـــــفٌ بـاكـــــي
ســـيـــقـــول يا أســـفـــا لقـــد ذهبـــا !

****

البحــيرة(*)

يـا إلـهـي ! حِــــــــرْتُ فـي بـحــــر الـزمـن !
هــــــام فـلـكـي فـي ظـلامٍ لا نـهــــــائـي !
لا أرى الـشــــــــاطــــئ يـدنــــو، أو أرى
أين أمـــضي، مــــا أمــــامي ؟ مـا ورائي؟
طالمـــــا ناديــــت، أرجــــو مـــــرفــأ
لســـــفـــــيني، دون جـــدوى لنـــدائـي!

جـئت وحـدي هـــا هنـا مـســتلهـمًـا
حــــدِّثيني، هـل توافق يـــا بحــــيــــرهْ ؟
شــــارف العــــام تمامًـــا، فـــاشـــهـــدي
مـــا ألاقي من تبـــاريحٍ وحـــيــــرهْ ؟

رقَص المـوجُ، وغنّـــــى، واســـــتـــوى
مـــاؤك العـــذب على الصـــخـر الغـــريب
ومـــــضـــــى ينســــاب دُرّاً نحــــوها
يخطب الودَّ، و «جـــوليـــا» تســـتــجــيب
كــــان هـذا أمــس حلمًـــا، وانتــــهـى !
أيعــــودُ الأمس أم ســوف يغــــيـــب ؟
اذكـــــري ليـــــلةَ كُنَّــــا هــا هـنــا
نتـــســـاقــــى الحـبَّ، «جـــوليـــا» وأنا

(*) ترجمة «عبد العزيز السيد مطر»، ونشرت بالرسالة، العدد ٩٨١ (أبريل ١٩٥٢) ص ٤٥ .

عـــــزف «المجـــــداف» ألحـــــان الأمـــل

فـــمـــضى «الـــزورق» مـــخـــتـــالاً بنا

وســـــرى الإيقـــــاع فــــي روح الـزمــــن

فـــاســــتـــجـــابت كل نفس حـــولنا

شَقَّ صــــمتَ الكون صــــوتٌ حـــــالمٌ

يجــذب الأســمـــاع بالســحـــر الحـــلال

صـــــافـــح الآذان فـــــاهتـــــزت لــــه

وهنا العـــالم يصــــغـــي للجــــمـــال :

«ابــطـــئـــي الـدورة يـــا أرض بـنـــا

أيهـــا الســـاعـــات لا يمــــضِ الأوانْ

خَلِّيـــــانا وحــــدنا فــــي حلمنـــا

ننهل الكـأس، فـــإنّـــا عـــاشـــقـــان

أسـرعـا مـا شـئـتـمـا مـــع غـيـرنـــا

أســـرعـــا مـــع كل مكروب مُـــهـــان

واحـــمــــلا الآلام عنـــه والضنـــى

واحـمـيـا العـشـاقَ من غـدرِ الزمــان

هل أجـــاب الدهر سُــــؤْلي ؟ لم يجب؟

هـكـذا الـدهـر ضـنـيـــنٌ بـالـطـلـــبْ

ها هو اللّيـل تقـــضَّـــى مــســـرعًــا،

هجم الصُّــــبْحُ عليــه، فـــهــربْ !

امـــزج الكـأس بحـــبـــي واســـقنيـ

ـه دهاقًـــا، فـــهي سلوى الحـــائرينْ

واقض كـــاللمـــح الأمـــاني، واغـــتنِم

إنمـا الـدهـر عـــدو الحـــالمينْ !

فـــهـــو كـــالســـهم مـــروقًـــا، لا يشـــا
ء أنـــــــاةً أو رســــــوًا بـالســــفيـنْ !
ويـح نفـــسي مـن زمـــانٍ حـــاســـدٍ
يـكره الحـب، ويـهــــوى البـــــائسيـنْ !
جــــعـل الليل ســــواءً، لـــو عَـــدَلْ
طال ليلـي، وانقـــضـى ليلُ الحـــــزيـنْ
أيّهـــا النور أجِـــبْنِـــي مُـــخْلِصًـــا
وتكلم أيّهـــا الماضـــي الدفـــيـــنْ !
أَيـرُدُّ الـــدهرُ أيـــامًـــا مـــضـــت ؟
أم طـواهـا فـــي ثـنـايـــــا الـذاهـبـينْ ؟
لـيت دهـري يـحــــفظ الـذكــــرى لنـــا !
إنما الذكـــرى حـــيـــاة العـــاشـــقينْ ؟

هــــذه الليـلة كــــانـــت نشـــوةً
يـبــــهج النفس شــــذاها إنْ خـطـــر
أيّـهـــا التــــــاريــــخ خلِّــــد ذكـرهـا
في نسـيـمِ الفـــجــر، أو ضـــوءِ القـــمــر

إنمـــا الحـــبُّ جــــمــــيــــلٌ دائمًـــا
في هـديرِ الموجِ،أو صـــفـــو اللجـــيـــن
شـــــاهـد الكونُ هـــوانـا فـلـيــــقُـل
كل شيء فــيـــه «كـــانا عـــاشـــقـــيـــن»

✱✱✱✱

البحـــيرة (*)

أهكـــذا أبـــدًا تمضـــــي أمـــانيـنـــا

نطوي الحــــيـــاةَ وليــلُ المـــوتِ يطوينـــا

تجــري بنـــا ســفنُ الأعــمـــارِ مـــاخـــرةً

بحـــرَ الوجـــودِ ولا نُلقـــي مَـــراســـينا ؟

بحــيــرةَ الحبّ حــيّــاكِ الحَــيـــا فلكـــم

كـــانـــت مــيـــاهُكِ بالنجوى تُحــيِّــينـــا !

قــد كنتُ أرجــو خــتــامَ العـــامِ يجـمـعنا

واليـــومَ للدهـــر لا يُرجـــى تلاقـــينـــا

فــجــئتُ أجلس وحــدي حــيــثــمـــا أخــذتْ

عنـــي الحــبــيــبـــةُ أيَ الحـــبّ تلقــينـــا

هـــــذا أنينُكِ مــــا بَدّلتِ نغـــمــــتَــــه

وطال مـــا حُـــمِلتْ فـــيـــه أغـــانينـــا

وفـــوق شـــاطئكِ الأمـــواجُ مـــا برحـــــتْ

تُلاطِمُ الصـــخـــرَ حــينًا والهـــوا حـــينـــا

وتحت أقـــدامـــهـــا يا طال مــــا طرحتْ

من رغـــوة المـــاءِ كـــفٌّ الريحِ تأمـــينا

(*) ترجمة «نقولا فياض»، فى ديوانه:رفيف الأقحوان، بيروت، ١٩٥٠، ص٩ وما بعدها، وجاء فيه أنها على وزن نونية أحمد شوقى: يا نائح الطلح أشباه عوادينا (والأجدر أن يقال إنها على غرار نونية ابن زيدون : أضحى التنائي..) وقد نشرت عدة مرات فى مواضع متفرقة، منها كتاب د. عدنان غزال: معارضات وقصائد ابن زيدون، ص٢٤١ وما بعدها من إصدارات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٤.

هل تذكــــرين مــــســــاءً فــوق مــــائـــكِ إذ

يـجـــــري ونحـن سكوتٌ فـي تَصــــــابينـا

والبـــرُّ والبــحـــر والأفـــلاك مــصـــغـــيـــةٌ

مَـــعْنَا فـــلا شيءَ يُلهـــيـــهـــا ويُلهـــينـــا

إلا المجـــــــاذيفُ بـالأمـــواج ضـــــــاربـةً

يخـــال إيقـــاعَــهـــا العــشّـــاقُ تلحـــينـــا

إذا برنّة أنـغـــــامٍ سُـــــحِـــــرتُ بـهــــا

فـــــخلـتُ أنّ الملا الأعلى يُناجــــــينــــا

والموجُ أصـــــــغـى لمن أهوى وقـــد تـركتْ

بهـــذه الكلمـــاتِ الموجَ مـــفــــتـــونـــا

يا دهرُ قفْ فـــــحـــــرامٌ أن تطيــــرَ بنـا

من قــــبل أن نتــــملّى مــــن أمــــانينـــا

ويا زمـــانَ الصِّـــبـــا دعنا علـــى مَـــهَـــلٍ

نلتـــــذّ بالحبّ في أحلــــى ليــــالينـــا

أجبْ دعــــاءَ بني البُـــؤْسى بأرضكَ ذي

وطِرْ بهم فــــهمُ في العـــيش يشـــقـــونـا

خُـــذ الشـــقيّ وخـذْ مـــعْـــه تعـــاســـتَـــه

وخَلِّنا فــــهناءُ الحــــبّ يكفــــينــــا

هيـــهـــات هيـــهـــات أنّ الدهر يســـمع لـي

فــــالوقتُ يفلت والســــاعــــاتُ تُفنينـــا

أقـــول لليل قــفْ والفـــجـــرُ يطـــرده

مُـــمـــزِّقًـــا منه سِـــتـــرًا بات يُخـــفـــينـــا

فلـنغنـــمِ الحبَّ مـــا دام الزمـــانُ بنـــا
يجـــري ولا وقـــفـــةٌ فـــيـــه تُعـــزّينـــا
مـــا دام في البـــؤس والنعـــمى تَصـــرُّفُـــه
إلـى الزوال، فـــيَـــبلى وهـو يُبلـينـــا
تاللهِ يا ظلمـــةَ الماضـي، ويـا عَـــدمًـــا
فـي لـيلـه الأبـديِّ الـدهـرُ يـرمـــينـــا
مـــا زال لجُّكِ للأيـــام مُـــبـــتلعًـــا
فـــمـــا الذي أنتِ بالأيام تُـجـــرينـــا
ناشـــدتُكِ الله قـــولي وارحـــمي ولـهي
أتُرجـــعينَ لنا أحـــلامَ مـــاضـــينـــا
فـــيـــا بحـــيـــرةَ أيامِ الصِّـــبـــا أبـــدًا
تـبـــقـين بـالـدهـر والأيـامِ تُـزْرينـــا
تذكـارُ عـــهـــدِ التّـــصـــابي فـاحـفظيـه لنـا
فـفـيكِ عـــهـــدُ التّـــصـــابِي بات مَـدفـــونا
على مـــيـــاهكِ في صـــفـــوٍ وفـــي كـــدرٍ
فليـبقَ ذا الذكـرُ تُحـيـيـه فـيُـحـيـينـا
وفي صـــخـــوركِ جـــرداءً مـــعلّقـــةً
عليكِ، والشّـــوحِ مُـــسْـــوَدٌّ الأفـــانينـــا
وفي ضـــفـــافكِ والأصـــواتُ راجـــعـــةٌ
منهـا إليـهـا كـتـرجـيع الشـجـيّـينـا
وليـبقَ في القـمـر السـاري، مُـبـيِّـضـةً
أنـوارُه سطحَكِ الزاهي بـهـــا حـــينـــا
وكلّمـا صـافـحـتكِ الريـــحُ فـــي سَـجَـرٍ
أو حـــرّكتْ قـــصـــبـــاتٌ عِطفَـــهـــا لِينـــا

أو فـــــــاح في الـروض عـطرٌ فـليكـــــنْ لكِ ذا

صـــــوتًا يُردّد عنّا مــــا جــرى فـــــينـــــا

أحَـــبّـــهـــــا وأحـــبّـــتْـــــه، ومـــا سلمـــا

مـن الـــردى، رحـــــمَ اللـهُ المحـــــــبّـــــينا

****

البحيرة(*)

ما فتئنا على الدوام أرانا
في اندفاعٍ يقتادنا للدمارِ
صوب شطٍ إلى انتقالٍ جديدٍ
حالك الليل سرمديّ المزارِ
أفلا نستطيع مطلقًا ذات يومٍ
رَمْيَ مرساتنا إلى الأغوارِ
في محيطٍ تُعَدّ فيه المنايا
وتسوى نهاية الأعمارِ ؟

ها هو العام يا بحيرة ولي
وأتت دورةٌ ليومِ لقانا
وعلى القرب من نوائب موجٍ
كان ينبغي أنْ نجيء كلانا
انظري ! حيثُ إنني جئت وحدي
وعلى صخرةٍ جلستُ زمانا
كنتِ قبلاً تَريْنَها بجواري
فتموجين في الشط آنًا فآنا

فوق هذي الصخور ذات الثنايا
كم تكسّرت فوق تلك الجوانبْ

(*) ترجمة «محمد أسعد ولاية» في «مختارات» ص ٤١ وما بعدها يتصدرها : البحيرة هي بحيرة بورجيه في سافوا، وقد نظمت الأبيات فى إكس له بان في سبتمبر عام ١٨١٧ حيث كان «لامرتين» ينتظر «إلفير» هنالك، فلم تحضر.

والهـــواء العليـــل يَقـــذِف حـــيـــنًا
زبد المــــوج عـــبــــر تـلـك المــــلاعبْ
فـــوق ســاقَيْ مــعــبـودتـــي في صــفـــاءٍ
بَدَّد الـهـــمَّ والـعنـــا والمتـــــاعــــبْ
أفــــلا تذكـــريــــن ذات مــــســـــــاءٍ
حين غَـــــشِيَ السكون وقت المـغـــاربْ
حـــيث لا صـــوت يمتطـــي المــــوج إلاَّ
ضــــربـــــاتٌ رتيـــبـــةٌ بالمضــــاربْ
كـــان صـــوت المجـــاديف تعـــبث بالـمَـوْ
ج فـــيـــرغـــي وتشـــرئب المســـاربْ

فـــإذا انبـــعـــاث نجـــوى ترامـــت
تجْـــهَل الأرض كنهـــهـــا ومـــداهـــا
ومـن الشـــــاطئ الجنوبـــيّ نـــادت
فـتـــهـــادى علـى النســيـــم صـــداهـــا
وكـــأنِّي بالمـــوج يصـــغـــي لصـــوتٍ
عـــزّ عندي، أثـار منه انتـــبـــاهـــا
ردد الطيــف فى الفـــضـــا كلمـــاتٍ
من مـــعـــانٍ سَـــمَت فـمـــا أحـــلاهـــا

قـــال : يا أيهـــا الزمـــان تـــوقف
لا تحـلّـق وَقِفْ مكانـــك حــــــيـنـــا
يا ســـويعـــات هدِّئـي ثـــم كُــــفِّي
عن مــســيـــرٍ، وفي الســرور دعـــينا
إنّ هـذي اللّذات تمـضـــي ســـــراعـــا
وَهْيَ أبهى أيامنـــا فـــاتركـــينـــا

كم تعـــيس في الكون يشـــقى ويبـــقـى
وهـو فـي لـهـــفـــة يظـــل حـــزينـــا
أســـرعي يا ســـويعـــات من أجــل هذا
بالْتِـــهَــام الأيـــام حـــينًا فـــحـــينـــا

عـــبـــثًـــا أطلـــب امـــتـــدادًا لوقـــت
فـــهــــو منِّي يَفـــرّ جـــريًـــا ويمضـــي
بَيْـــدَ أني لليلتـــي قلـــت كـــونـــي
بطِّئي الســـيــــر لا تكوني كـــومـض
وَلَوْ اَنَّ المصــيـــر للفـــجـــر حـــتـــمًـــا
حــــيث يسطو على الظلام ويقـــضي
فـــدعـــونـــا إذن نحـــب ونلهـــو
ولْنُعَـــجِّل قـــبـل الفـــراق المُـــمِـــضّ
باغـــتنـــامٍ لســـاعـــةٍ ســـتـــولّي
قـــبـل أن يقطع الطريـــق التـــقَـــضِّي
ليـــس للمـــرء مـــرفـــأٌ ومـــلاذٌ
لا ولا للزمـــــــــان شـــــــطٌّ لأرضِ
إن أوقـــاتنـــا تمـــر عـــجـــالـى
ســوف نمضي إلى البــلى: ســوف نمضي

للزمـــان الغـــيـــور وجَّـــهْتُ ســـؤلـــي
فـي أمـــورٍ أودت بظـــرف هنـائـــي
إن للمـــرء في الحـــيـــاة ظـــروفًـــا
بيـــن زهـــوٍ مـــحـــبـــبٍ وبـــلاءِ
لحظـات بنشـــــوة الحب تغـــري
مـــائجـــات طويلـــة بالصـــفـــاءِ

هل تراهــــــا تطيــر عنًّا بعــــــيـــدًا
مـــثلمــــــا قــد يزول دور الشـــقــــاءِ ؟
هَبْــــهُ مـــاذا ! ألـــن نـــوفق يومًـــــا
لاجــتـــــلاء التــجــديــد والإحــصــاءِ ؟
مـــا عـــسـاه انقـــضى إلى غـــيـر أوب
والـــــــذي ضـــاع كلـــه بمضـــاءِ ؟
إنـهــا منحـــة الـزمـــان حـــبـــاهـــا
قـــد مـــحـــاهـــا . فـــهل لنا من رجـــاء؟

هـل جـــــــــوابٌ تـرى مـن الأبـديـــــةْ
ومن المــوت أو مـــواض قـــصـــيّـــةْ؟
أو من الهُـــوّة الســحـــيــقـــة باتــت
فــي ظلامٍ كـــــمــــوطـــنٍ للمنيـــةْ؟
مـــا عـــســاها بذلك العـــهـــد تنــوي
بـابتـــلاع الأيام، تلك ضـــحـــيـــةْ
هل تعـــيـــد الأســـلاب بعـــد إلينـــا
إنــهـــــا نـشــوة الـغـــرام الـهـنـيّــه؟

فــاســمــعي يا بحـــيــرة [الحبِّ] همّــي
والصـــخـــور الصـــمّــاءُ ثم الكهـــوفُ
والضـــيــاع الظلمـــاء حــول مــقـــامــي
إذ بـأرجـــــائكن الـزمــــان يطـــــوفُ
لست أبغي من الطبـــيـــعـــة شـــيـــئًـا
إن سُـــؤْلـــي مُـــيَـــسَّـــرٌ وطفـــيـــفُ
هـذه ليلـــةٌ لـهــــا ذكـــــريـــــاتٌ
فـــاحــفظيـــهـــا، وللرجـــاءِ ظـــــروفُ

****

البحـــيرة(*)

حــتّــام يشــقى الفـتى والدهـــرُ يدفــعُــــهُ
وليس مـن ظلمـــــات المــوت يُرجِـــــعُـــــهُ
يســـعى إلى الشـــاطئ المجـــهـــول منـــه ولا
يـلـقـي المراسـي عـلــــى مــــوجٍ يـروِّعــه
أيا بحــيــرةُ هل بَعْـــد الحـبـيـبـة لـــي
سلوى وذاك الهـــوى بــاقٍ تفـــجُّـــعــــه
وفـــيـك فلـــذة قلـــبٍ ذائـــبٍ وقــــعـــتْ
بل واقعٌ فـــيك قلبُ الصب أجـــمــــعُــــه
أُحِبُّ مــوجـكِ حــبًّــا للتـــي وقـــفـــتْ
عليــــه يومًـــا وقـــد جـــــاءت تودعُـــه
مـــا كــــاد عـــامٌ يولّـــي بعــد فــرقــتنــا
حـــتى رجـــعتُ وقلبي الشـــوقُ يدفـــعُـه
وجـئتُ أجلس وحــدي حــيــثــمــا جلســتْ
يا حـــبَّــذا حـــجـــرٌ دمـــعـــي يرصِّـــعُـه
كـــــذا هديـــرك فــــي قلبــــي أرنَّ ولـــمْ
يـزل يـــرنّ فـــيـــشـــجـــيــــه ويـولعُــــه
كـذا على الصــخــر كـان المــوج منمـــزقًـا
كـــمـــا تمزق مـــن مـــضنـــاك أضلُعُـــه
كــــذا تـنـاثـر فـي لـيـل الـهـــوى زبـــــــدٌ
فكان من قـــدمـــيــــهـــا اللثـــم يقنعُــــه

(*) لأبي الفضل الوليد (الياس عبد الله طعمة) – الجندي المجهول – : ديوان، ط ٢ بيروت ١٩٨١، ص ٢١٩ وما بعدها.

هل تذكــرين مــســاءً فــيــه نزهتنــا
مــرَّت ســريعًــا وأحلى العــيش أســرعُــه
إذ كــــان قــــاربنا يســـري ولا نفَــسٌ
تحت الســمــاء وفــوق المــاء نســمــعُــه
وللمـــجـــاديف وقعٌ فـــيـــك يطربنــــا
ولحنـهـا نغــــمُ الأمـــواج يتــبــعُــه
إذا رنيمٌ شــــجـيٌّ ليس مــــن بشــــرٍ
راعَ الضــفــاف التي أمــست ترجِّــعُــه
والصــخــر والموج والأغــصــان شــاعــرةٌ
والريح تخــفــضــه طــورًا وترفــعُــه
فطار قلبي وقـــد أصــبــحت من طربي
كنائمٍ زخــرفُ الأحـــلامِ يخـــدعُــه
لم أَنْسَ والله مـــا قـــالت وقـــد زفــرتْ
فــفــاض من جــفنهــا الفــتّــانِ مــدمــعُــه
يا دهرُ مـــهـــلاً ويا ســـاعـــات لذتنــــا
قـــفي قليـــلاً لوصـــلٍ منـــك ننزعُـــه
من الغـــرام دعـــينا نشـــتـــفـــي فنفـــي
حقَ الشــبــاب الذي جــئنــا نشــيّــعُــه
مــا أكــثــر الهمّ في الدنيــا الغــرور فكــم
دعـــا المنيّـــة مـــن بلـــواه تصـــرعُـــه
خــذي حــيــاة ذوي البــؤســى وشــقــوتهمْ
وانســي الســعــيدَ فــإنَّ الحــب يطمِعُــه
ســألتُ دهري وقـوفًــا فـــي ســعــادتنــا
فَــفَــرَّ منـــي كـــأنَّ الصـــوت يفـــزعُـــه

وقلت يـــا ليلُ طُلْ رفــقًـــا بعـــاشـــقـــةٍ

فــفـــرّق الـصــبـــح مــا كنّـــا نجــمـعُـــه

فلنهـــوَ فلنهـــوَ ولننعـــمْ علـــى عـــجـــلٍ

إذا ظفِـــرنـــا بعلـــــق لا نضـــيِّـــعُـــــه

ولنغـــتنـــــم فـــرصـــــةَ اللّذات هــــاربةً

فـــالقلب تهنئـــه الــــذكـــرى وتوجـــعُـــه

والوقتُ كـــالمرء لـــم يبـــلغْ شـــواطئـــه

والحـــسن في الحـــزن روضٌ جفَّ ممرعُـــه

يا دهرُ رفـــقًـــا بأهـــل الحـــبِّ إنَّ لهـــم

في عـــيـــشـــهـــم وطرًا مــا زلتَ تمنعُـــه

حـــتى على أقْـــصـــر اللَّـــذات تحـــســـدنا

وقـــد غـــصـــصنا بما فـــي الهمِّ نجـــرعُـــه

على الـهـــوى قـــد جـــرى دمـــعِي وســـال دمي

ومـــا الذي بعـــد طيـــب الوصـــل أصنعُـــه

تـقـلَّـصَ الـظِّلُ من روضـي وهـا قـــــــدحـــي

مكسَّـــرٌ بعـــد مـــا قـــد كنت أترعُـــه

وَلَّى نعـــيـــمِي كـــبـــؤسِي عـــاجـــلاً فـذوى

عـلـيـــــه قـلـبـــي وأبكانـــــي تمنُّعُـــه

ألست أقْـــــدر أن أُبـقـي لـــــه أثـــــرًا

في مـــهـــجـــتي وعلى الأحـــشـــاء أَطبَـــعُـــه

مـــا مـــرَّ فـــات فـــلا دمـــعٌ ولا نـــدمٌ

يشـــفي فـــؤادي وليس الصـــبـــر ينفـــعُـــه

يا ذاهب العـــمـــر كـــم ذِكـــرٍ وكم ألمٍ

تطوي وتخـــرق مـــا الإنســـان يرفـــعُـــه

قل مـــا فـــعلـــت بأيـــام تدفّنهـــا
والحـــسن والحب مـــاءٌ غـــاض منبـــعُـــه
ألا تعـــيـــد لقلبـــي لـــذَّةً هربـــتْ
ومن ليـــالي الهـــوى حـــينًا تمنعُـــه ؟
يا حـــبَّـــذا مـــا مـــضى لو كـــان يرجع لـي
وحـــبَّـــذا المنزلُ المهـــجـــورُ مـــربعُـــه
أيا بحـــيـــرة يا صـــخـــرًا أصـــم ويـــا
غـابًا كـثـيـفًـا وكـهـفًـا شـــاق بلـــقـعُـه
صـــانت مـــحـــاسنُك النعـــمى مـــجـــددةً
ثوبًا من النضـــــر تكســـوه وتخـلعُـــــه
ناشـــــدتك الله أَحْـــيِي ذكـــرَ ليلتنـــا
لكلِّ قلبٍ يـــــدُ البلـــوى تصـــدِّعـــه
إنْ كنت هـادئـةً أو كنـــــت هـائـجـــــةً
بحـــيـــرةَ الحـــب فـــيك الذكـــرُ أُودِعُـــه
فليـــحْيَ في ضـــفَّـــةٍ خـــضـــراء مـــزهرةٍ
وفي خـــمـــائـــلَ وادٍ طـــاب مـــرتعُـــه
وفي الصـــخـــور التي تحنو عليك وفـــي
صنوبر زادنـــي وجـــدًا تَخَـــشُّـــعُـــه
وفي هدير صـــــدى الضـــفَّـــات ردَّده
والغـــصن مَـــدَّتْ لضـــم الغـــصن أذرعُـــه
وفي نســـــيمٍ له في الـــدوح هَيْـــمَنَـةٌ
كـــأنهـــا لحـــن تطريـــب نوقـــعُـــه
وفي ضـــيـــاءٍ على مـــاءٍ يفـــضّـــضُ مـــا
شـــجـــا من الكوكب الـــدريِّ مطلعُـــه

فـــــالريـح إن زفـــــرت في روضـــــــةٍ نـضـرتْ
ومــــال بالقـــصب الشّـــاكــــي تلوّعُـــــــه
وإن ســــــرى أرجٌ تحــــيــــا بـــه مـــــهـــــجٌ
فـأنعــــش الســاهـــر الـعـانــــي تضـرُّعُـــه
ليــســــمع الناس صـــوتًا هـاتفًـــا أبــــــدًا
في ليل حِبٍّ خَلِيٍّ البــــال يـهـــــجــــعُــــــه
لقـد أحـبّـا فـمـا طـال اجـتـمـاعـهـمـا
والحب إنْ زال أبكى العين مــــوضـــــعُــــــه

****

بحيرة الذكريات(*)

أهكذا نحن دومًا نَهْب أسفارِ
في ليل دهرٍ مسعد دونَ إسفارِ!
أليس مِنْ وقفةٍ للتائه الساري
أو شاطئ يحتويه بعد إبحار ؟

ويا بحيرتنا .. هل تذكرين (مها)
تلك التي طالما داعبتها ولها !
تأملي.. أنا وحدي فوق صخرتها
أجترُّ ذكرى نجاواها وأسماري

كم رمتُ من تحت هذا الصخر مقتحَما
نحو الملاك الذي في سفحه جثما
ثم انتثرتُ رذاذًا يلثم القدما
والشوقُ يحدوه ممزوجًا بإكبار

وليلة الجَلَواتِ الخضر حين جرى
يختال زورقُنا في خطوةٍ سَحرا
وقد غفا الموجُ حتى أيقظ القمرا
وقعُ المجاديف في ألحانِ قيثار

ذو فجأةٍ غلغلتْ في الشاطئ الهاني
أصداءُ أنشودةٍ كالسحرِ مرنان

(*) ترجمة مجهولة المترجم، رمز لاسمه بحرف م، ونشرت بالعدد الثالث من السنة الثانية من المجلة العربية في سنة ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، ص ٦ وما بعدها. وكانت المجلة قد أعدت مسابقة لنظم قصيدة البحيرة شعرًا عموديًا ونشرت مع الإعلان عن المسابقة قطعة من الترجمة الشعرية لنقولا فياض، (نقلا عن جريدة النهار البيروتية).

أصـــغى لهـــا الماءُ في شـــوقٍ وتحنـــــــانِ
وقـــد ســـرى رجـــعُـــهـــا في كلِّ تيـــار !

قِفْ لحظةً يا قطارَ الدهر.. واتئـــــــدِ
يا ساعِ في سيرك العجلان نحو غد
وأمـــهـــلانا نَذُقْ من عـــابـــر الرغــــد
ســوانحًــا ســوف تغــدو مــحض تذكــار
كم بائسٍ يســـأل الأيـــام إســـراعـــا
ضـــيـــقًـــا بِهمٍّ أحـــال العـــيشَ أوجـــاعـــا
فـــاعـــجل بهم يا ســـفينَ العـــمـــرِ دفَّـــاعـــا
وخـلِّـنـــــا لـهـنـــــاءاتٍ وأوطـــــار
لكنْ .. تُرَى عـــبـــثًـــا أدعـــو؟ فلســـت أرى
لما أُرجِّي صـــدى يَهـــدي ولا خـــبـــرا!
عـــمـــرٌ يفِـــرُّ ولا ألفـــي لـــه أثـــرا
فـــلا تكونَـــنَّ يا ليلـــي بفـــرَّار
لكنّه الفـــجـــرُ يَطْوِي الليـــل عن كـــثَبِ
فـــينطوي في مـــداه حلمُنا الذهبـــي
فلتُـــرْوَ أرواحُنا من مـــوردٍ عـــجـــبِ
هو المنى كلهـــا في هـــذه الـــدار
يا أيّهـــا الزمن المبْـــدِي لنا الحـــســـدا
أقَـــدَّر الله أن نشـــقى هنـــا أبـــدا ؟
عـــلامَ تمضي هُنَيْـــهـــاتُ الصـــفـــا بدَدا
ويلبث الغمُّ طورًا بعـــد أطـــوار ؟ !
يا ليـتـــهـــا(١) أسلست يومًـــا لرغـــبـــتنـــا
فـــأمكنتنا مـــن اســـتـــبـــقـــاء لذتنـــا

لكنَّ (ليت) خـــيـــالٌ هـــاج لوعـــتَـنـــا
ثم امّـــحى إثـــرها من غـــيـــر إنـــذار

يا ذا الخـــضمّ الذي يســـتـــوعب الزَّمنا
ويبلغ الكل.. مـــا الســـر الخـــبيء هنـا ؟
ألا تعـــيـــد لنا بعض الـــذي ســـجنـــا
لـديك مـن نـشـــــواتٍ ذات أســـــرار ؟

ويا بحـــيـــرة : لا حَلَّتْ بـــك الغِـــيَـــرُ
وأيـهـــا الـغـــار والأحـــجـــار والشَّـــجــرُ
في عـــهـــدكن ســـتـــبـقى هـــذه الـــذِكَـــرُ
فـــصُنْهـــا صـــانَكُنَّ الخـــالقُ البـــاري

في صـــمـــتك الغَـــمْـــر والأرياح عـــاصـــفـــةٌ
وفي تـلالك والـشطـــــــآن ضـــاحكـــــةٌ
ونجـــمـــةٌ تسكب الأضـــواء ناعـــمـــةٌ
فـتـسـتـحـيلين فـيـهـا حـقـــل أزهـــار

في كل ذاك اذكـــري قلبًـــا لـهـــا سكنا
وكـــــــان لـلـحـب - لـو تـدريـنـه - سـكـنـا
فـــربَّ ذكـــرى نَضَتْ عن مَـــيِّتٍ كـــفنا
فـــعـــاش ينبـــوعَ إلـهـــامٍ وأشـــعـــار

وليـــشـــهـــد الطيـــر والأطيـــاب والنَّسَمُ
وكل شـيء هنـا يرنـــو ويبـــتـــســـمُ
إني على عـــهـــدها باقٍ وإن زعـــمـــوا
أن الـردى قـــاتلُ حـــبّي وأوتـــاري

****

(١) الضمير فيهما عائد إلى (هنيهات الصفا) (المترجم).

البحـــيرة(*)

ســــتظل الحـــيـــاة في الكـــون تجـري
واللّيـــالي تمتـــد من غـــيـــر فـــجـــرِ
فـي بحــــــار الـزمــــان نـدفــع دَوْمًــــا
كل بحــــرٍ يقــودُ منـهـــا لـبـــحـــر
لـيس نـقـــوى عـلـى الـوقــــوف بـيــومٍ
إن رأينـا الـوقـــوف بـالـيـــوم يُغـــري
لا، ولا نســــتطيـــع عــودًا لـعـــهـــدٍ
أنـصـف الـقـلـب فـي قـــديـــم الـدهـــر

هـكذا قـــد طوَيْـــتُ بـالـيـــوم أمــــسـي
مــا شَـفَـيْتُ من الحـبـيـبـة نفـســـي
هـا هـنا تشـــهـــد الـبـــحـــيـــرة أنّــا
قـــد شـــربنا الـغـــرام كـــأسًـا بكـــأس
ثم لـم يَكـد ينقـــضي الـعـــام حــــتـى
غـــادرتني وخلفـــتنـــي لـبـــؤســـي
فـــإذا بـــي لدى الـبـــحــــيـــرة وحـــدي
إن تســـاءلت لم أجــد غـــيـــر يأســـي

كم جلســـنا وحــــدثتنا الـبــــحـــيـــرهْ
بـهـــــدير الـشـــــواطـــئ المخـــــرورهْ

(*) ترجمة «فهد بن علي النفيسة»، ونشرت كذلك بالعدد الثالث من السنة الثانية من المجلة العربية في سنة ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، ص ٨ وما بعدها.

كم تمادت فــــقـــبَّلـتْ قـــدمـــيـــهـــا
في ســـــرورٍ، وكــــبــــريـــاءٍ وغــــيــــره
كم زهـا الصــــخـــر حــــينمـــا تعـــتليـه
فــــهـــو عـــرشٌ يخـــتـــال تحت أمـــيـــره
كـم رمـى المـوج حـــــــولـه فـي نـشــــاط
زبدًا مـــثل فـــــضـــــةٍ مــــصـــهـــوره

آه هل تذكــــر البـــحــــيــــرة أمـــســـي
والمســــــاء الذي تـولَّــــى بـأنســـــي
إذ مـــخـــرنا عـــبـــابَهـــا في سكـــونٍ
يتــــغني المجـــداف فـــيـــه بـهـــمـــسِ
وأيـادي الميــــــاه تســـــعـــى إليـنــــا
ثم تمضي للعـــمق من غـــيـــر لمـــس
وحـــديثُ الغـــرام في شـــفـــتـــينــا
لـيـس يـحـكـى فـي نـطـق جـنٍّ وأنــــس

يوم قـــالت حـــبـــيـــبـــتـــي للّيـــالـــي
اتركــــــينـا نَـعُبُّ كــــأس الـوصــــال
فــــقـــــفي عند هذه الحــــال لسنـــا
بعــــدها نبــــغي في الدُنا أيّ حـــال
آهِ لـكنَّ فـــي الحـــــيــــاة أنـامًـــا
بؤســــاءً يرجــــون منك التــــوالـــي

فـــتـــوالـي لأجلهــــم واســــعــــديهــم
واتركـــــينا نعـــــيش فـي الآمــــال

آه ! مـــــالي أتوه فـــي أحــــــلامـــــي؟

أبتـــــغي غـــــيـــر سنــــة الأيـــــام

ســـــوف يطوى اللقـــــاء والليل يمضـــي

فَلْنُســــارع لحَــــسْـــوِ كــــأس الغــــرام

مـــــا لنا ولِلَّيـــل غـــيـــــر التـــــلاشـــــي

فـــــــالخلود ضـــــــرب من الأوهـــــــام

ليس للعـــيش شـــاطــئ ننتـــحـــيـــــه

أو حـــــدودٌ نرومـــــهـــا للمـــــقـــــام

أيُّهـــا الدهرُ، يـا شـــقيُّ، أَجِـــبنـــي

لِمَ تفني مـــســـــرتي قـــبل حـــزني ؟

لِمَ لَـمْ تُـبْـقِ لـي مـن الأمـــس جـــــزءًا

رُبَّ جـــــزءٍ من المســـــرة يُغنــــــي؟

أين تلك الأيام أيـــــن الحـــبـــيـــبـــة

أين ســــــعـــــــدي وأين أنسي وأمني؟

هـل تـوارتْ بـلا رجـــــوعٍ ومَـــنْ قـــــد

ســـاقــهـــا لي يســوقُـــهـــا اليــوم عني ؟

أَفْـــــتِـنـي يا خلودُ : أيـــــن هنـــائـي

وافـــتني يا ضَــيـــاءُ : أين عـــــزائي ؟

واخــــبــــريني يا هوّة العـــيـش خلفـــي

أين ســــــعـــــــدي الذي تلاشى ورائي؟

لِمَ لا تُرجِــــعـــــون لي بعض أنســــي

أو تروني في الغـــيم بعــــد رجـــائي؟

مـــــا الذي تـصنعـــونـــــه بالليـــــالي

حـين تطـوونـهـــــــا بـــــــلا إرجـــــــاء

صـــخـــرتي، كـــهـــفي، غـــابتي، والبـــحَـــيْـــرَه

احــــــفظوا الودّ، إنْ طوتني المســــــيــــــرهْ

ســـوف أمـــضـي وســـوف تبـــقـــون، بعـــدي

فـــــاكـــــتـــــبـــوا عن غـــــرامنـــا أسطــــوره

واحــــفظوهـــا ورددوهـــا فـــحـــســـبـــي

أننا قـــصـــــةٌ غـــــدت مـــــشـــــهـــــوره

واحـــفظيـــهـــا يا تلَّتي، يـــا صنوبــــر

يا ربى، يا حـــــجـــــارتي المهـــــجـوره

وليـــــــقل بلبل الريـــــــاض الشـــــادي

وليـــــقل ثغـــــر غـــــصنهـــا الميّـــــاد

وليـــقل شـــــاطـــــئُ البـــحـــيـــــرة دومًـــا

وليـــــقل هاتفُ الصـــــبـــــا في الــــــوادي

وليـــــقل كل مـــــا علـــــى الأرض عنّـــــا

في نشــــيــــدٍ مـــســــتـــرسِـل الإنشــــاد :

قـــد أَحَـــبَّـــا وأخلصـــا فـــاســتـــحـــقـــا

أن يدومـــــا بـالـذكـــــــر فـــي الآبـــــــاد

****

البحـــيرة (*)

مـــــراحلُ الدهر تطوينــــــا ليـــاليـــهــــا
ولا مــفـــــرّ، فــآتيــهــا كــمــاضِـيــهــا
في لجّـــة العــــمـــرِ نُلْقى كى نســـيـــر، ولا
نلقي المراسيَ يومًـــا فــــي مـــوانيـــهـــا
يـا مــــــوجُ، أين الـتي كـــــانــــــت تؤمّلُ أنْ
تـأتي وتلقـــاك ؟ قـــد خـــابت أمـــانيـــهـــا !
مـــا كـــاد يلفظ هــذا العـــامُ نســـمَـــتـــه
رَجَـــعْـتُ أبحث عنهـــا، لا ألاقـــــيـــهـــــا
جلستُ وحــدي حــزينًا حــيــثــمــا جلسَتْ
وكنتَ تنظرهـــا تشــــدو أغـــانيـــهـــا
مــا زلتَ مـصطخـبًـا فـوق الصــخـور ومــا
زالتْ تردُّكَ مـــدحـــورًا حـــواشـــيـــهـــا
والـريحُ تـلـقي عـلـى أقـــدامنــــا زبــــدًا
عن الصـــخـــور تهـــاوَى مـــن أعـــاليـــهـــا
ألسْتَ تذكـــر إذ ســـرنــــــا وثالـثنـــا
في هَدْأة اللّيل أنفــاســي تناجــيــهـــا ؟
لا شـيء يـقـلـق ذيّـاك الـسـكـونَ ســــوى
جَـــرْسِ المجـــاديف في آذان رامــيــهــــا

(*) ترجمة «شحادة عبد الله اليازجي»، ونشرت بالمجلة العربية بالعدد السادس من السنة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ ضمن المسابقة التي أعدتها المجلة في موضوع «أفضل ترجمة شعرية لقصيدة البحيرة» وقدمت المجلة لها بـ «من أحسن القصائد التى وصلت إلينا في مسابقة البحيرة... وهي تأتي في ترتيب لجنة التحكيم الثالثة».

هزّ الصـــدى نيّـــراتٍ أثلجت كـــبـــدي
يامـا أُحـيْلى بأذنِي صـوت حـاكـيـهـا
فـاهت فـأخـرست الأمـواج نقـمـتـهـا
لم تألف الأرض نغـمـتـهـا تحـاكـيـهـا
يا دهر قف لا تَسـر، سـاعـات لذتنا
توقـفي، واتركـينـا فـي مـجـاريهـا
أَلاَ اتركـيـنا نَذُقْ لذات أجـمل أيَّـ
ـيـام الحـيـاةِ،اتركـيـهـا لا تُدانيـهـا
كم أشـقـيـاء بهـذا الكون قـد طلبـت
منك المسـيـر، فلبِّـيـهـا وداوِيهـا
مُـرِّي عليـهـا، خـذي أيام مـحنتـهـا
وانسي صـفـا السُـعَـدا، خلّي تصـافـيـهـا
لكننى عـبـثًـا أرجـو توقـفـهـا
فـسـرعـة الدهر لا يُرجـى تلافـيـهـا
أقـول لِلَّيل أمـهِلْنـا وتسـرُعـه
طلائعُ الفـجـر يهـوِي فـي مـهـاويهـا
فلنـنهب الحبَّ والسـاعـات هاربـة
ولنغـتنمْ مـا لدينا مـن مـجـانيـهـا
لا شط للدهر، لا مـيـنـاء تأملـه
يمضـي وتمضـي بـآلامٍ نعـانيـهـا
يـا دهـرُ، يـا هـادمَ اللذاتِ،كـيف أويـ
قـات السـعـادة فى أبهى ليـاليـهـا
لهـا بسـرعـتـهـا مـا للتـعـاسـة فـي
مـسـيـرها، منك حظٌ لا يواتيـهـا؟

فـــــهل تـزول ولا يبـــقى لـهـــا أثـــــرٌ ؟
أيمّحِي كلُّ مـــعنى من مـــعـــانيـــهـــا؟
الدهـرُ جـــاد بـهـــا،والدهر يمحـــقـــهـــا
ألا تعـــود بـهـــا أيـــام فـــانيـــهـــا ؟
فــــيـــا خـلودُ، ويا مـــاضـي، ويـا عـــدمٌ
ويـا وهـادَ ظـــلامٍ ضــــلَّ رائيــــهـــــا
ألا تعــــيــــدين لـــــذّاتٍ ترســـخنـــا ؟
مــــا تـصنعين بـأيــــام تـواريـهـــا ؟
ويا بـحــــيـــرتَنا، يا ذي الكـهـــوف ويـــا
صــخـــورُ، يا غـــابةٌ غـصّتْ نواحــيــهـــا
أنت التي الدهر يبـــقـــيـــهـــا ويحـــفظها
يُحـــيي فـتـــوتَهـا، يُحْـــيِي تصـــابيــهـــا
ألا خــــــذي لـك تذكــــــارًا للـيلـتنـــا
هذي، احـــفظيـــه مـــثـــالاً من مـــآتيـــهـــا
يبـــقى بسـخطك، يبـقى فـــي هدوئـــك فـــي
ابتـســـام شـــاطيك في الدنيـا وشـــاطِيــهـــا
في الدوح[1]، فى ذي الصـخـور الراسـخـات على
مــتـــن الميـــاه كـحــــرّاسٍ تـــراعـيــهـــا
في هينمـــات أهازيج النســـيـــم وفـــــي
صــــدى ضـفـافـــك، في أعلى مـراقـيــهـــا
في كـوكـبٍ سـاطـــــع،أنـــوار جـبـهـتـــه
تضـــيء صـفـحـتَـك البـيـضـــا لآليــهـــا
حـتى لطيف الشـذا من طيـــب نسـمـتـــك الـ
مـــعطار والريـــح والحلْفـــا وحـــاويهـــا

(١) في الأصل : الشوح (؟)

ومـــــــا نشـــــــم ونلقــــاه ونســـمـــعـــــــه
ومـــا نشــــاهد، والدنيـــا ومـــا فـــيـــهـــا
إذا تراءت لـهـــا الذكـــرى تقـــــول: أجـــــلْ
ذاقـــا من الحبِّ كـــأسًـــا جـــارَ ســـاقـــيـــهـــا

****

البحـــيرة[*]

أهكذا قضى الله أن نمخر في عباب الحياة
مدفوعين في ظلام الأبد من شاطئ إلى شاطئ،
دون أن نملك الرجوع إلى ملجأ،
أو الرسو ذات يوم على مرفأ ؟
انظري أيتها البحيرة ! ..
ها هو ذا العام قد كاد يشارف تمامه،
وأنا وحدي بجانب أمواجك الحبيبة
أرتقب عبثا عودة جوليا إليها،
جالسًا فوق الصخرة التى كنت ترينها جالسة عليها !
كذلك بالأمس كنت تهدرين فوق هذه الصخور المعلقة،
وتتكسر أمواجك على جوانبها الممزقة
ويقذف هواؤك الزبد على قدميها المعبودتين .
أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك بين الماء والسماء
نجدف في سكون وصمت،
وقد ضرب الله على آذان الطبيعة وختم على أفواه الخليقة،
فلا نحس حركة ولا نسمع ركزا[1]

(*) ترجمة «أحمد حسن الزيات»، ونشرها ثم في ضوء القمر (وما قبلها في : من الأدب الفرنسي) ص ١٨٠وما بعدها، يتصدرها نظم لامرتين هذه القطعة الخالدة في بحيرة بورجيه من سفوا، وقد وفد على اكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم جوليا إليها وجوليا يومئذٍ كانت تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب نداءه ولم تستطع لقاءه، فزفر لامرتين هذه الزفرة، وأرسل هذه العبرة، من صدر مكروب وعين قريحة . ثم عاد إلى (ميلي) شارد اللب مضطرم الجوانح، وهذه هي بطلة قصة رفائيل وهي قصة كتبها لامرتين ونقلها إلى العربية مترجم هذه القصص والقصائد (المترجم).

(١) الركز : الصوت الخفي (المترجم)

غير إيقاع المجاديف على أنغام الموج ؟ .
وإذا بصوت لا عهد للآذان بمثله ينبعث من ضفتك الجميلة،
فشق حجاب السكون، وأطلق لسان الصدى .
وهناك أنصت الموج، وأصغى الهواء،
وأخذ هذا الصوت الحبيب إليَّ يساقط هذه الكلمات :
أيتها الأرض قفي دورانك ! ..
وأنت أيتها الساعات قفى جريانك ! ..
ودعينا نتمتع بعاجل لذاتنا، وننعم بأجمل أيام شبابنا»
إن كثيرًا من صرعى الحياة وفرائس البؤس
يتضرعون إليك أن تسرعي بهم،
لتخففي من كربهم،
فاستجيبي إليهم،
وكري مسرعة عليهم،
وخذي مع عمرهم الذاهب «ألم عذابهم الواصب،
واتركي السعداء والناعمين غارقين في غفلات العيش وظلال الأمن !
«على أنني واويلتاه كلما لجحت في الطلب،
لج الزمان في الهرب، فأنا أتمنى عليه المنى فلا تحقق،
وأستزيده البرهة اليسيرة فلا أوفق،
فسألت هذه الليلة أن تكون أطول وأمهل،
ولكن السؤال خاب
وبازي الصبح قد افترس غراب الليل ! »
فلنتساق إذن كؤوس الهوى دهاقا،
ولنقض مآربنا عجالا،
فليس لسفينة الإنسان مرفأ، ولا لخضم الزمان ساحل :
إن الزمان ليتدفق، وإنا مع تياره نمر ونمضي !

«أيها الزمن الحاقد الحاسد ! ..
أكذلك قضيت أن تمضي لحظات الأنس وسكرات الحب سراعا
كما تمضي أيام الشقاء والبؤس !
«ويلك» ! ..
أما نستطيع على الأقل أن نتبين آثارها ونلمح أنوارها؟!
وكيف ؟ .. أتراها قد ذهبت إلى غير رجعة،
وماتت إلى غير بعث؟ .. واويلتاه ! .. هل انقضى كل شيء ؟ ..
وهل الزمن الذي منحها وأعطاها، والذي طمسها وعفاها،
لا يردها ثانية علينا ؟
حدثني أيها الأبد ! .. أيها العدم ! .. أيها الماضي ! ..
أيها الخور العميق ! ..
ماذا تصنع بهذه الأيام التي تغيبها في أحشائك،
وتطويها في أثنائك ؟ ..
أما ترجع إلينا ما سلبتنا من سكرات نبيلة، ومسرات جميلة ؟ ..»
أيتها البحيرة الصاخبة ! ..
أيتها الصخور الصامتة !
أيتها الغيران الموحشة ! أيتها الغابات المظلمة ! ..
أنتن اللاتي يبقي عليهن الدهر،
فيجدّهن بعد البلى، ويخصبهن بعد المحل ! ..
فاحتفظن من هذه الليلة السعيدة على الأقل بذكراها،
وانطوين على شذا أرجها وطيب رياها !» .
لتبق ذكراها أيتها البحيرة في هدوئك الشامل،
وعواصفك الهوج، وهضابك الضحوك ! ..
لتبق في هذا الصنوبر الذاهب في السماء،
وفي وعر الصخور المعلقة فوق الماء ! ..

لتبق في النسيم العابث بوجهك،
وفي الهدير المردد بين ضفافك،
وفي الكوكب الفضي يضيء سطحك بأنواره الرخية الزهية ! ...
وليقل الهواء الذي يصفر،
والقصب الذي يزفر،
والنسيم المعطر الذي يضوع !
كل ما نرى وما نسمع وما نتنسم : « لقد كانا عاشقين !» .

****

البحـــيرة(*)

كذلك لا نزال مدفوعين أبدًا نحو شطآن جديدة، في الليل الأزلي، ومسافرين بلا عودة

أفلا نستطيع أن نلقي المرساة يومًا واحدًا في محيط العمر ؟

أيتها البحيرة ! يكاد العام يتم دورته، فانظري!

لقد جئت وحدي، قرب الأمواج العزيزة

التى يجب أن تراها هي،

جئت أجلس على هذا الحجر الذي رأيتها تجلس عليه !

كنت تجأرين كذلك حيال هذه الصخور البعيدة

وكذلك كنت تتحطمين على جوانبها الممزقة،

وكذلك كانت الريح تلقي زبد أمواجك على قدميها المعبودتين .

هل تذكـرين ؟ في ذات مـسـاء، كنا ندفع المجـاديف في صـمت وسكون لـم يك يسمع من بعيد على صفحة الموج،

تحت السماوات،

غير صوت المجاديف وهى تضرب ضرباتها المتزنة على أمواجك الرخيمة .

وفجأة تردد صدى أقوال مجهولة آتية من الأرض – على الشاطئ المفتون .

وكان الموج منتبهًا، وكان الصوت المحبوب يردد هذه الكلمات :

أيها الزمن : قف طيرانك وأنت أيتها الساعات الهنيئة ! قفي جريانك :

دعينا نتذوق اللذات العجلى من خير أيامنا وأجملها .

(*) ترجمة «عبد العزيز صبري»، ونشرت بالسياسة الأسبوعية العدد ١٧٩ من السنة الرابعة (أغسطس ١٩٢٩م).

كم من شقي هنا يتوسل إليك، فأسرعي بهم،
واتخذي من أيامهم يد العناية التي تطويهم، وانسي السعداء . غير أني أرجو بعض الزمن عبثا .
إن الزمن يهرب مني فأقول لهذا الليل .
مهلاً، إن الفجر سيمحو الظلام .
فلنحب إذن، فلنحب إذن ! ولنسرع لنسبق الساعة الهاربة !
فليس للإنسان مرسى، وليس للزمن شاطئ
إنه يجري ونحن نمضي في إثره .
أيها الزمن الحسود : هل يمكن أن تطير منا أويقات النشوة
التي يملأ لنا فيها الحب كأس الهناء مترعة بسرعة أيام الشقاء؟
كيف ! ألا تستطيع على الأقل تعيين أثرها ؟ كيف ! هل تمضي إلى الأبد ؟
كيف ! كل شيء هالك !
هذا الزمن الذي وهبها، هو الزمن الذي محاها، فلا يعيدها الينا أبدا !
أيها الخلود، أيها العدم، أيها الماضي، أيتها اللجج المظلمة :
ماذا تفعلين بالأيام التى تبتلعين؟
تكلمي : ألا ترجعين إلينا تلك المفاتن العظيمة التي سحرتنا بها ؟
أيتها البحيرة ! أيتها الصخور الصماء ! أيتها الكهوف ! أيتها الغابات المظلمات !
أنت يا من يستبقيك الزمن، أو التي يستطيع تجديد شبابها !
احفظي لديك شيئًا من هذه الليلة . وأنت أيتها
الطبيعة الجميلة ! احفظي لنا الذكرى على الأقل !
أيتها البحيرة الجميلة ! لتكن في سكونك، ولتكن في اضطرابك،
وفي منظر تلالك الضاحكة،
وفي الأدواح القائمة وفي تلك الصخور الصلدة، التي تنحني على أمواهك !

ولتكن في النسيم الذي يرتعش ويمضي وفي صدى شواطئك الأخرى .

وفي الكوكب ذي الجبين الفضي الذي يشرق على وجهك الناصع بأضوائه اللطيفة !

وليقل الهواء الذي ينتحب، واليراع الذي يتنهد،

وشذا ريحك العطر ليقل كل ما نسمع،

وكل ما نرى، وكل ما نتنفس :« إنهما أحبا ! »

****

البحـــيرة(*)

هكذا ندفع دائمًا من شاطئ إلى شاطئ تتقاذفنا الأمواج دون رجوع في ليل لا ينتهي.

ألا نستطيع أبدًا أن نرسو ذات يوم على مرفأ في اقيانوس الحياة ؟

إيه أيتها البحيرة

لم تكد السنة تشارف نهايتها

حتى رأيتني وحدي على جانب هذه المياه الحبيبة التي كان يجب أن نراها مرة ثانية

انظريني أعود وحيدًا

وأجلس منفردًا على هذه الصخرة

التي رأيتها جالسة عليها

لقد كنت تهدرين هكذا تحت هذه الصخور العميقة

وهكذا كنت تتحطمين على جوانحها المشققة

وهكذا كانت الرياح تقذف زبد أمواجك

على قدميها المعبودتين

أتذكرين إذ كنا نجدف على سطحك ذات مساء، بصمت

حتى لا يسمع من بعيد فوق الماء ولا تحت الماء

سوء حركات المجاديف

(*) ترجمة «د. محمد مهدي البصير»، ونشرت بمجلة كلية الآداب جامعة بغداد (إصدار خاص بأربعينية فقيد الوطن والأدب الدكتور محمد مهدي البصير) العدد الثامن عشر ١٩٧٤ بمطبعة المعارف، بغداد سنة ١٩٧٥م، ص٣١ وما بعدها، يتصدرها: «نقلت بحيرة لامرتين الشهيرة إلى العربية في ترجمتين إحداهما منظومة للدكتور نقولا فياض، والثانية منثورة للأستاذ الزيات. وقد أحببت أن أفرغ هذه القطعة الفرنسية الجميلة في قالب عربي ثالث. ومن المفيد أن أذكر القارئ أني توخيت الترجمة الحرفية في هذا النقل، فلم أتصرف إلا نادرا. وقد وضعت الكلمات القليلة التى لا مقابل لها فى الأصل داخل أقواس، تمييزًا لها عن غيرها».

التي توقع بانتظام على نغم الأمواج ؟
بينما نجدف إذ بالشواطئ المسحورة
تردد فجأة صدى نبرة غير معروفة على الأرض
هناك أنصتت الأمواج وساقط الصوت الحبيب
إليَّ هذه الكلمات :
إيه أيها الفلك أوقف دورانك(١)
وأنت أيتها الساعات السعيدة عطلي جريانك
ودعينا نتمتع باللذات العاجلة من أجمل أيامنا
إن في الأرض كثيرًا من البؤساء
الذين هم يضرعون إليك أن تسرعي إليهم
مري بهم سراعا
وخذي مع أيامهم الآلام(٢) التي تفترسهم
وتناسي السعداء
ولكني أطلب عبثًا بضع سويعات أخرى
فإن الوقت يطير من يدي شاردا
لقد قلت لهذه الليلة : كوني أطول عمرا
ولكن الفجر سيمزق شملها
لنحب إذن، لنحب إذن
ولنسرع للتمتع بهذه الساعات الذاهبة
فليس لسفينة الإنسان من مرفأ(٣)

---

(١) الترجمة الحرفية : إيه أيها الوقت، أوقف طيرانك (المترجم).
(٢) الترجمة الحرفية : القلق (المترجم).
(٣) الترجمة الحرفية : ليس للإنسان من ساحل (المترجم).

ولا لإقيانوس الزمان من ساحل
إنه يجري، ونحن نمر (من أمواجه)
أيها الزمان الحاسد،
أمن العدل أن الساعات
التي يترع لنا فيها الغرام أكواب السعادة
تطير بعيدة عنا بنفس السرعة .
التي تتوارى بها أيام الشقاء ؟
ماذا ؟ ألا نستطيع على الأقل أن نتبين آثارها ؟
ماذا ؟ أتوارت إلى الأبد ؟
أخسرناها كلها ؟
وهذا الزمن الذي أعطاها وأسرها
ألا يعيدها ثانية ؟
أيها الخلود، أيها العدم، أيها الماضي
أيتها المجاهل السحيقة خبريني
ماذا تصنعين بالأيام التى تبتلعينها ؟
تكلّمي ! ألا تعيدين إلينا تلك السكرات العلوية
التى اختلستها منا ؟
إيه أيتها البحيرة
أيتها الصخور الصامتة، أيتها الكهوف
أيتها الغابة المظلمة
أنتن اللواتي يبقي عليهن الدهر ويجددهن
احفظن من هذه الليلة
احفظي أيتها الطبيعة الجميلة ذكراها على الأقل
ليكن فى النسيم العليل الذي (يدغدغ أمواجك)

وفي الأصداء التي ترددها شواطِئك
وفي الكوكب الفضي اللجيني
الذي يبيض سطحك بأنواره المشرقة[1]
ليقل الريح التي تئن والقصب الذي يتنهد
ونفحات نسيمك المعطر النديه[2]
ليقل كل ما يسمع وما يرى وما يتنسم
ليقل كل هذا : لقد كانا متحابين[*]

****

(١) الترجمة الحرفية : أنواره اللينة (المترجم).
(٢) الترجمة الحرفية : الخفيفة (المترجم).
(*) حملت الترجمة في نهايتها : بغداد ٤/ ٢ / ١٩٣٨ .

البحـــيرة(*)

هكذا نُدفع دائمًا نحو شطآن جديدة
ونحلم في الليالي الخالدة ولا نعود !
ألا نستطيع – على خضم الزمن –
أن نلقي المرساة يومًا واحدًا ؟

أيتها البحيرة : أوشك العام أن ينقضي .
انظري ! إنني قادم وحدي لأجلس على ذلك الحجر
الذي رأيتها تجلس عليه
قريبًا من تلك الأمواج التي كان يجب أن تراها ثانيًا .
إنك كنت تزأرين – كفعلك الآن – تحت هذه الصخور الغائرة وكنت تتحطمين
كذلك على جوانبها المحطمة،
وكذلك كانت الرياح تلقي زبد الأمواج
على أقدامها المحبوبة،

وفي إحدى الليالي – ألا تذكرين – سار بنا الزورق في صمت وما سمعنا
– إلى مدى بعيد – فوق الماء وتحت السماء
إلا ضربات النوتي، المستوية اللحن،

(*) ترجمة «عبد الرزاق حميدة»، وجاءت في كتابه: في الأدب المقارن ص ٦١ وما بعدها، وصدرها بقوله: ترجمت هذه القصيدة شعرًا ونثرًا وقد آثرت أن أنقلها عن الأصل الفرنسي نثرًا لصعوبة المحافظة على الأصل، ولو كان في استطاعة أديب أن ينقلها شعرًا، ويحافظ فيها على المعنى، والخصائص الفنية المتعلقة بناحية اللفظ والأسلوب . لكان خيرًا وأقوم وكنا عندئذٍ نستطيع أن نتحدث عن قيمتها من هذه الناحية أما أنا فقد آثرت ترجمتها نثرًا وهذه هي الترجمة».

لأمواجك المؤتلفة الأنغام .

ثم فاجأتنا ألحان لا عهد للأرض بمثلها
من الشاطئ الساحر، هات الصدى
وأصغى الموج، وذلك الصوت الحبيب إلى نفسي
أطلق من فيه تلك الكلمات :

« أيها الزمن قف دورتك، وأنت أيتها اللحظات المسعدة
كفي عن المسير،
ودعينا نستمتع بهذا السرور العاجل
الذي ننعم به في أهنأ الأيام
هناك كثير من البائسين يضرعون إليك،
فأسرع، أسرع إليهم،
واقض آجالهم، واقنن معها ما يحطمهم من الأوصاب،
وانس السعداء .
لكن رجائي أن أستمتع لحظات أخرى كان خائبًا،
لقد أفلت مني الزمان وطار .
قلت لتلك الليلة «لا تعجلي» ولكن طلع الفجر .
فمحا آية الظلام .
فليحب بعضنا بعضًا . وفي الزمن الفاني .
فلنسرع إلى الاستمتاع .
ليس للإنسان مرفأ وليس للزمن من شاطئ .
إنه يسير، ونحن ذاهبون .

أيها الزمن الغيور : أيمكن لساعات الحبور هذه –

وهي التي سقانا الحب فيها السعادة ونحن فوق الأمواج -
أن تنأى عنا مسرعة،
كما تسرع إلينا أيام الشقاء ؟
عجبًا ! ألا نستطيع على الأقل أن نتبين آثارها ؟
ما هذا ؟ أتنقضي ولا تعود ؟ ما هذا ؟ أكلها قد نسيت ؟
ذلك الزمن الذي جاد بها، ذلك الزمن الذي محاها .
ألا يردها من جديد ؟

أيتها الأبدية، والعدم، والزمن الغابر، وغيابات الماضي،
ماذا فعلت بالأيام التي التهمتها ؟
انطقي ! أتردين إلينا تلك المسرات العظيمة .
التي انتزعتها من أيدينا؟
أيتها البحيرة، والصخور الصامتة، والمغارات، والغابات الغامضة
أنت أيتها التي يبقي عليها الزمن، أو يعيد إليها الشباب،
لتحفظي تلك الليلة، ولتعيها أيتها الطبيعة الحسناء،
أو - على الأقل - فلتذكريها .

احفظيها في وقت سكونك وفي ثورتك .
أيتها البحيرة الجميلة . وفي مرأى جنباتك الباسمة،
وفي أشجار الأرز المظلمة، وفي تلك الصخور القاسية .
التي تشرف على أمواهك .
احفظيها في نسيمك الذى يخطر ثم يسير .
احفظيها في اصطخاب شطآنك الذي تردده هذه الشطآن .

وفي لمعان وجهك الفضي الذي يلألئ سطحك .
وفي أنوارك الناعمة .

فلتنطق الريح الحنون، واليراع الزافر،
والشذى الخفيف الذي يحمله هواؤك العاطر،
وكل شيء يرى أو يسمع أو يتنفس،
ولتقل جميعها : إنهما قد تحابّا.

****

البحـــيرة(*)

هكذا نساق كل يوم نحو شط جديد،
نساق إلى غير أوبة في ليل سرمديٍّ،
يا ليت شعري – والأيامُ نَسبَحُها كبحر مديد –
أنُلْقي المِرْساة يومًا واحدًا في بحرها اللجي ؟

أيتها البحيرة ! هأنذا – ولم تكد تدور بنا دورة العام –
هأنذا بجانب الموج الحبيب الذي وَدَّتْ لو تعودُ إليه،
انظري ! هأنذا أجلس على هذه الصخرة وحيدًا،
على الصخرة التي رأيتها جالسةً عليها

هكذا غمغمتِ تحت عميق الصخور،
هكذا لاطَمْت جَنْبَيْها فانتثرت رذاذًا،
هكذا ألقت الريحُ من أمواجك بالزَّبَدِ
على قدميها الحبيبتين

أتذكرين ذات مساء إذ سبحنا في الزورق صامتين
بين موجك والسماء، لا نسمع على بُعد صوتا
إلا إيقاع المجاذيف يغمسها أصحابها
في موجكِ المتناغم الألحان ؟

(*) ترجمة أحمد أمين وزكي نجيب محمود، في : قصة الأدب في العالم، الجزء الثالث من القسم الأول، ص ١١٨ وما بعدها، طبعة : سلسلة : ذاكرة الكتابة، القاهرة ٢٠٠٢، مصورة عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وإن هي إلا نبرات لم تعهد الأرض مثلها
تردُّ من الشاطئ المسحور فتُسكتَ سائرَ الأصداء
ويُصغي الموجُ إلى صوتها الرخيم
إذ يجري بهذه الكلمات

قف أيها الزمان دورتَك، ويا أوقات السعادة
رويدكِ لا تسرعي الخطى !
لننشق منك العبير وإنه لسريع الزوال
فأنت من أيامنا أحلاها عبيرًا

«كلا يا زمانُ، فما أكثر البؤساء الذين رفعوا أكف الدعاء
لنسرع الخُطى، فَدُرْ يا زمان من أجل هؤلاء
وفي غضون أيامك احملْ ما يُشقيهم من عناء،
وعن السعداء غُضَّ الطرف، إنهم سعداء»

«لكني عبثًا دعوتُ أن أُمْهَلَ بضعَ دقائق،
إذ أفْلَتَ مني الزمانُ وأسرع
فخاطبْتُ ليلتي : «إذن فرويدك أبطئي»
لكن أقبل الفجر وبَدّد ليلي»

«هيا إلى الحب، وإلى الحب هيا ! لا نُبْطِئَنْ
وبهذه اللحظة الهاربة فلْنَسْعَدَنْ
ليس للإنسان مرفأ فيرسو، بحر الزمان بغير شطٍّ
إنه يجري، ونحن في جريه نمضي !»
يا لَغَيْرَة الزمن ! أيجوز لهذه اللحظات النَّشْوى بالنعيم

حيث الحب قد أترع كؤوسنا غبطةً وسعادة
أن تزول عنا مسرعة خطاها
كأنها في ذلك وأوقات الشقاء سواء ؟

ويحي ! أَفَلَنْ نستطيع أن نُخَلِّف بعدنا أثرًا ؟
ماذا ؟ أماضُون نحن إلى الأبد فلا إياب ؟
وهذا الذي أعطاه الزمن ثم محاه
ألن يعود مرة أخرى فيعطيه ؟

أيها الأزل، أيها العدم، أيها الماضي، يا هوةً سحيقة ظلماء !
ماذا تصنعين بالليالي التي في جوفك تبلعين ؟
انطقي ! أأنت رادَّةٌ إلينا لحظات النشوة العظمى
التي كانت لنا فسلبتِها ؟

أيتها البحيرةُ، ويا بُكْمَ الصخور، ويا كهوفُ، ويا ظليل الغاب !
أناديكِ أنتِ التي أغضى عنك الزمان فأبقاك، بل هو خالعٌ عليك شبابًا بعد شباب
احفظي من هذه الليلة، أيتها الطبيعة الجميلة، احفظي
على الأقل ذكراها !

كلما سكن منك الماء أو اضطرب بهوج الرياح
أيتها البحيرة الجميلة، وفي جبينك هذا، المشرق الوضاح،
في هذا الصنوبر الأدكن، وفي هذه الصخور الغلاظ
التي تَفْتَرِشُ فوق مياهك

كلما هب عليك النسيم هامسًا أو لامسًا
كلما صاتَتْ جنباتُك فردَّتْ جنباتك الأخرى الصدى
كلما فَضَّضَ ماءك النجمُ اللامعُ
بخيوط من شعاعه الوضاء

كلما أنَّتْ رياحٌ أو تنهد عُود
كلما عبق هواؤك بأريج وعبير
مُري كل ما ترى العين أو يشم الأنف أو تسمع الأذن
مري كل هؤلاء أن تقول «لقد كانا حبيبين !»

****

البحـــيرة(*)

أيتها البحيرة، ها هي ذي السنة قد انتهت دورتها،
وها أنذا أجيء الآن لأجلس وحدي على هذا الحجر
الذي كنت ترينها جالسة عليه بجانبي في العام الماضي،
وبالقرب من تلك الأمواج الغزيرة التي كان ينبغي أن تراها جوليا في هذا العام.

أيتها البحيرة لقد كنت تصطخبين تحت هذه الصخور العميقة وتتكسرين على جوانبها الممزقة
ولقد كانت الرياح تلقي بزبد أمواجك تحت قدميها المعبودتين،
وهل تتذكرين أننا في ذات مساء كنا نتنزه فوق سطح مياهك في سكون شامل
إلى حد أنه لم يكن أحد يسمع فوق الأمواج وتحت السماء
إلا ضجيج المجاذيف
التي كانت تضرب على نسق واحد أمواجك المنسجمة
وفجأة علا صوت ليس معروف النظير على هذه الأرض
وضرب أصداء الشواطئ المفتونة،
وأصغت للهجته الأمواج وانتبهت، فإذا به يقذف بهذه الكلمات :

(*) ترجمة: «د. محمد غلاب»، أدباء الرومانتيكية الفرنسية، القاهرة ١٩٥٨ ص ١١٠، مسبوقة بـ : «لا شك أن من يقرأ هذه القصيدة يرى بين سطورها أن هذا الشاعر كان يعتبر الطبيعة كائنًا حيّاً يصح أن يشكو إليه العشاق آلامهم، ويبثوه أحزانهم وأرزاءهم ويشهدوه على وفائهم وإخلاصهم، ويأتمنوه على ذكرياتهم وأسرارهم وحقًا كان لامارتين كذلك بإزاء الطبيعة، كان إذا خلا إليها ناجاها واسترحمها واتخذها كاتمًا لأسراره، أمينًا على مكنونات قلبه، وليس هذا فحسب، بل كان يذهب به خياله الشعري إلى أبعد من هذا فيتصور أنها تشاركه آلامه وأحزانه، وترتدي الحداد من أجل نكباته وبأسائه».

«أيها الزمن قف عن السير، وأنت أيتها الساعات كفي عن مرورك ودعينا نتذوق
هذه اللحظات السريعة من بين أيام حياتنا،
أيتها الصخور الخرساء، أيتها الكهوف والمغاور، أيتها الغابات العميقة
أنتن اللواتي سيبقي عليكن الدهر
وسيستطيع أن يعيد إليكن شبابكن المفقود
احفظن واحفظي أنت أيضًا أيتها الطبيعة الجميلة
ذكريات تلك الليلة على الأقل
أيتها البحيرة الجميلة،
لتكن هذه الذكريات محفوظة لديك في سكونك وفي هياجك
وفي مظاهر جوانبك الضاحكة،
كما في مناظر تلك الأشجار السوداء
والصخور المتوحشة المحنية فوق مياهك
أيتها البحيرة،
لتنطق العواصف التي تتأوه،
والأشجار التي تتنهد،
والعطر اللطيف الذي يحمله هواؤك الشذي،
وعلى الإجمال: لينطق كل ما يسمع وما يرى وما يستنشق
بأن هذين الشخصين قد تحابا».

****

البحـــيرة(*)

وهكذا نظل مندفعين نحو شطآن جديدة
نضرب في ليل الأبد
إلى غير عودة
أفلا نستطيع أبدًا
فوق محيط السنين
أن نرسي القلاع يومًا
كاد العام ينتهي
أيتها البحيرة .. فانظري !
..هأنذا آتي إليك وحيدًا
أجلس فوق هذه الصخرة
حيث رأيتها تجلس
قريبًا من الأمواج الحبيبة
التي كانت ستراها من جديد
وهكذا كنت تهدرين
تحت هذه الصخور العميقة
وعلى جوانب هذه الصخور

(*) ترجمة د. محمد غنيمى هلال، في كتابه : النقد الأدبي الحديث، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٧١ (مكتبة الأنجلو المصرية)، ص ٤١٦، وغني عن الذكر أنها مجرد مقتطفات، وإنما أوردناها لما تتسم به من دقة، ولمكانة محمد غنيمي هلال الذي أثرى الموضوع بمؤلفات مثل : الرومانتيكية (القاهرة ١٩٧١) وكتابه: الأدب المقارن – دار العودة، بيروت، ويضم فصلاً جيدًا عن المذهب الرومانتيكي، وكذلك كتابه : دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده – دار نهضة مصر، القاهرة، ويضم فصلاً في غاية الجودة عن فلسفة الصورة في شعر الرومانتيكيين.

كنت تتكسرين
وهكذا كانت الريح ترمي بزبد موجاتك
على أقدامها العزيزة
ذات مساء – ألا تذكرين
كنا نسبح في صمت
حيث لم يكن يسمع من بعيد
فوق الموج وتحت السموات
سوى خرير المجاديف
تضرب – في إيقاعها –
ألحان موجاتك
أيتها البحيرة
والصخور الصماء .. والكهوف .. والغابة المظلمة
أنتن في أمان من الزمن
بل إنه يعيد إليكن الشباب
فلا أقل من أن تحتفظن
وأن تحتفظي – أيتها الطبيعة الجميلة
بذكرى هذه الليلة!

****

البحـــيرة(*)

أنظل هكذا منساقين أبدًا إلى شواطئ جديدة
محمولين دائمًا وسط الليل الأبدي بغير رجعة ؟
أو ما نستطيع أن نلقي بمرساتنا يومًا
على شاطئ الزمن اللجي ؟
أيتها البحيرة ! لم يكد العام يتم دورته، ومع ذلك انظري
ها أنا وحدي جالسًا فوق هذه الصخرة
التى رأيتها تجلس عليها

(*) ترجمة «د. محمد مندور» فى كتابه: فن الشعر، ص ٤٦ وما بعدها، ومهد لها بأن الشعراء الرومانتيكيين « نرى عندهم قصائد يوحي عنوانها بأنها قصائد وصفية مثل قصيدة «البحيرة» للامرتين، ومع ذلك نقرأ هذه القصيدة التي كتبها على ضفاف بحيرة بورجيه فى جبال السافوي بفرنسا فلا نجد فيها أي وصف لتلك البحيرة، وقد استحالت إلى مجرد إطار لتجربة عاطفية عاناها على ضفافها مع حبيبته «إلفير» التي قضى معها على ضفافها خمسة عشر يومًا سنة ١٨١٦ ثم تواعدا على العودة إليها في العام القادم، ولكن شاء القدر أن يعود لامرتين وحده، أما الحبيبة فكان الموت قد طواها بداء الرئة، فكتب هذه القصيدة الرائعة باسم «البحيرة» وما فيها من وصف البحيرة غير ملامح خاطفة، أما بقية الشعر فعن ذكرياته مع الحبيبة ولواعجه على موتها المبكر وما يسوقه إلى الشاعر من تأملات في الحياة والموت وتلقف الغناء لفترات السعادة التي نصادفها في حياتنا العابرة، فالقصيدة كلها تعبير عن ذات الشاعر لا وصف للبحيرة أو محاكاة لصورتها الشعرية التي انعكست في نفسه، وبذلك يمكن القول بأن الكلاسيكية المستندة إلى نظرية المحاكاة الأرسطالية ونظرية التعبير عن الوجدان الفردي وهي النظرية التي يسهل ربطها بالإلهام الشعري قد وضعتا نهائيًا القطبين اللذين لا يزال الشعر يتأرجح بينهما منذ فجر الإنسانية حتى اليوم، وإليهما ترجع فى أيامنا هذه، النظريتان الكبيرتان اللتان يتنازعان العالم، وسيظلان يتنازعانه إلى أمد طويل وهما : «نظرية الواقعية والنظرية الرومانسية ».

غلبت إذن الرومانسية الحاجة إلى التعبير عن الوجدان الذاتي على غريزة المحاكاة الموضوعية حتى رأينا هذا الوجدان يطغى على كل شعر رومانسي، ولو أوحى بأنه شعر وصفي موضوعي وها هي ذي قصيدة البحيرة للامرتين شاهد على ذلك.

وإلى جوار أمواجك العزيزة التي كانت ستعود إلى رؤيتها

هكذا كنت تهدرين تحت هذه الصخور العميقة
وهكذا كانت الرياح تلقي بزبد أمواجك
فوق قدميها المعبودتين
أو ما تذكرين كيف كنا نجدف صامتين ذات مساء
وكنا لا نسمع عن بعد فوق الموج وتحت السموات .

غير حفيف المجاديف وهي تضرب فى صمت
أمواجك الناغمة
وفجأة ترددت في الشاطئ
أصداء نغمات تجهلها الأرض
فأنصت الموج وتساقطت من الصوت الحبيب
هذه الكلمات :

أيها الزمن قف جريانك
وأنت أيتها الساعات السعيدة قفي انسيابك
واتركينا ننعم باللذات العابرة
التي تتيحها أجمل أيامنا

كثير من منكوبى الحياة يضرعون إليك
فأسرعي. أسرعى إليهم
واحملي مع أيامهم الآلام التى تنهشهم
وانسي السعداء
ولكنني أسألك عبثًا فضلاً من اللحظات

فالزمن يفلت ويهرب
وأقول لهذا الليل تمهل

والفجر سيبدد الليل
فلنحب إذن . فلنحب !
ولنسرع إلى المتعة لحظة الهروب
فالإنسان لا مرفأ له، والزمن ما له من شاطئ
إنه ينساب وننساب معه

أيها الزمن الغيور
هل يجوز أن تنساب عنا لحظات النشوة
التي يسكب لنا فيها الحب السعادة جرعات طوالا

بالسرعة نفسها التي تنساب بها أيام الشقاء؟
ثم ماذا؟ أو ما نستطيع أن نستبقي الأثر؟
أهكذا تمر إلى الأبد ؟ أهكذا يضيع كل شيء
وهذا الزمن الذي منحها والذي محاها

لن يردها إلينا قط ؟
أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها الماضي! أيتها الأغوار الداكنة
ماذا تفعلين بما تبتلعين من أيام ؟
تكلمي، هل ستردين إلينا تلك النشوات العلوية
التي تسلبينها منا ؟

أيتها البحيرة. أيتها الصخور الصامتة، والكهوف
والغابة الحالكة.
أنت التي يستبقيك الزمن أو يجدد شبابك.
احتفظي من هذه الليلة، أيتها الطبيعة الجميلة.
على الأقل بالذكرى.
وفى لحظات هدوئك أو صخبك
أيتها البحيرة الجميلة وفي شواطئك الباسمة
وفي صنوبرك الأسود وصخورك الموحشة
الحانية فوق أمواهك
وفي النسيم الذي يرتعش ويمر
وفي النغمات التي ترددها شطآنك
وفي النجم الفضيِّ الذي يضيء صفحتك
بأشعته الرخية
وفى الريح التي تئن والغاب الذي يتنهد
وفي العطور الخفيفة المنسابة فى أريج هوائك
وفي كل ما يسمع و ما يرى وما يتنفس
ليتردد في كل هذا : أنهما كانا حبيبين.

****

البحـــيرة(*)

أنظل هكذا .. مدفوعين دائمًا نحو شطآن جديدة
يتقاذفنا الليل السرمدي إلى غير عودة !
أو ما نستطيع ونحن على بحر الأزمان، أن نلقي مرساتنا .. يومًا واحدًا ؟

أيتها البحيرة ! السنة لم تكد تنقضي ..
وهنا، قريبًا من الأمواج الحبيبة التى أرادت الرجوع إليها ...
انظري ! لقد أتيت، أنا وحدي،
أجلس على هذه الصخرة، التي كنت تنظرينها جالسة عليها!
كنت تهدرين تحت هذه الصخور العميقة،
.. وكنت تتحطمين تحت جوانبها الممزقة !
.. وكان الريح يرمي بزبد أمواجك،
تحت قدميها الفاتنتين !

وذات مساء – أما تذكرين – أبحرنا في سكون،
وما كان يسمع لنا، في البعد، فوق العباب،
وتحت السحاب،
إلا ضجة المجاديف وهي تضرب في إيقاع موزون

(*) ترجمة «د. محمد منير العجلاني»، ونشرت بالعدد الرابع من المجلة العربية ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ص ١٢ وما بعدها، مسبوقة بمقالة للمترجم بعنوان : «لامارتين أمير الشعراء الفرنسيين (الشاعر الذي أحب الشرق وأعجب بمحمد صلي الله عليه وسلم) هل كان من أصل عربي ؟».

أمواجك المتناغمة !
وفجأة، تداولت أصداء الشاطئ المسحور
كلمات لا عهد للدنيا بمثل نيرانها ..
فأنصت الموج .. ومن شفتي حبيبتي
تساقطت هذه الكلمات :
أيها الزمان ! قف مسيرتك !
وأنت أيتها الساعات الحلوة قفي دورتك !
ودعونا نستمتع، في أجمل أيامنا،

بهذه اللذات العابرة !
كثير من البؤساء في هذه الدنيا يضرعون إليك،
يا زمان ..
أن نمضي .. فامض قدمًا لأجلهم !
وخذ، مع أيامهم، الهموم التي تفترسهم
ودع السعداء !

ولكنني أنشد، عبثًا، هنيهات أخرى،
فالزمن يبتعد عني ويهرب ..
فيا ليلتنا هذه، سألتك الله تمهلي!

.. ولكن الفجر سيطوي الليل عما قريب !
فلنحب ! ولنحب !
ولنسرع إلى الاستمتاع بالساعة الشاردة ..
ليس للإنسان ميناء ..

وليس للزمان شاطئ
فهو يجري .. ونحن نمضي !

أيها الزمن الحسود ! أمكتوب علينا ..
أن تطير من بين أيدينا لحظات الهناء،
التي يغمرنا فيها الحب بالسعادة،
بأسرع مما تغيب عنا أيام الشقاء ؟
واهًا لنا ! أما نستطيع أن نستمسك، على الأقل،
بإثارة منها ؟
ماذا ؟ أذهبت إلى الأبد ؟ أضاعت كلها ؟
وهذا الزمان الذي أعطاها،
وهذا الزمان الذي محاها .
ألا يعيدها إلينا أبدا ؟

أيها الخلود ! أيها العدم ؟ أيها الماضي ! أيتها المهاوي السحيقة !
ماذا تصنعون بالأيام التي تطوونها ؟
تكلموا ! ألا تردون إلينا هذه النشوات الرفيعة،
التى تخطفتموها منا ؟
أيتها البحيرة ! والصخور الصم، والكهوف، والغابة السوداء !
أنتم الذين استبقاكم الزمان، وقد يجدد شبابكم،
احفظوا .. هذه الليلة .. وأنت، أيتها الطبيعة الجميلة ..
احفظي .. ذكراها على الأقل !
ويا أيتها البحيرة الحبيبة ! احفظيها ..
في سكونك . وخلال زوابعك ..

وفي مجلى تلالك الباسمة .
وفي صنوبراتك السود،
وفي حجارتك المهجورة التي تتدلى على مياهك ..
وفي نسيم الصبا الذي يرتعش ويمر ..
وفي صخب شطآنك الذي تردد شطآنك أصداءه ..
وفي النجمة ذات الجبهة الفضية التي تنشر . على صفحتك،
غلالة بيضاء شفافة من أنوارها الناعمة ؟

وليقل الريح الذي يئن،
والقصب الذي يتنهد،
والطيوب اللطيفة التي تتضوع من هوائك العطر
وكل ما يسمع،
وكل ما يرى،
وكل ما يتنفس،
ليقل كل هؤلاء :
لقد أحبا !

****

البحـــيرة[*]

دائما تمخر عباب الحياة
تندفع إلى شطآن جديدة
نذهب دون رجعة[1] في الليل الأبدي
ألن نرسو ذات يوم على محيط العمر
أيتها البحيرة ها هو ذا العام كاد ينتهي
وأنا وحيد بجانب أمواجك المتدفقة
أرقب عبثًا عودة (جوليا)
كنت بالأمس تئنين فوق هذه الصخور
وتتكسرين على جنباتها المزقة
وتقذف الرياح زبد موجك
على قدميها المعبودتين
أتذكرين ذاك المساء عندما كنا
بين المساء والسماء
نجذف في صمت وسكون
فلا نسمع صوتًا غير إيقاع المجاديف
على أنغام أمواجك
وإذا بأصوات تنبعث من ضفتك الجميلة
تقرع الأصداء فينصت الموج ويصغي الهواء

(*) ترجمة «رجاء الشلبي» (وصفت بأنها مترجمة سورية)، ضمن المواد المصورة من الانترنت عن لامارتين.
(١) في الأصل : رجفة، ولعلها مجرد خطأ في الطباعة.

ويترك الصوت الحبيب
هذه الكلمات تسقط
أيتها الأرض أوقفي دورانك
وأنت أيتها الساعات الجميلة
أوقفي جريانك
دعينا نتمتع بالمتع العاجلة
الأجمل في أيامنا
تتوسل إليك الآلام في هذه الدنيا
أن تسرعي إليهم
خذي من عمرهم الهموم التي أضنتهم
اتركي السعداء
إلا أنني عبثًا أطلب بعض اللحظات
فالزمن يتحرر مني ويولي هاربًا
فأسأل الليلة أن تمر ببطء لكن سؤالي خاب
وإذا بالفجر يبدد الليل
فلنعشق إذًا في الزمن الهارب
ولنهرول ونستمتع
فليس لسفينة الإنسان مرفأ
وليس للزمان شاطئ
فهو يمر ونحن نمضي
أيها الزمن الغيور
هل يرضيك أن تطير لحظات السكر
بعيدًا عنا بسرعة أيام العذاب
والحب الكبير ما زال يسكب لنا السعادة
ويلك هل نستطيع على الأقل

أن نتبين آثارها ؟
هل الزمن الذي أعطاها
والذي محاها
لا يردها إلينا ثانية
حدثيني أيتها الأبدية
أيها البحار المظلمة
ماذا تفعلون بهذه الأيام التي تبتلعونها
ألن تعيدوا إلينا تلك المسرات الجميلة
أيتها البحيرة الصاخبة
أيتها الصخور الصامتة
أيتها الكهوف أيتها الغابة المظلمة
فأنتن من يبقي عليهن الدهر
فاحتفظن من هذه الليلة السعيدة
ومن هذه الطبيعة الجميلة
على الأقل بالذكرى
لتبق الذكرى أيتها البحيرة الجميلة
في هدوئك وهيجانك
في شاطئك الزاهي وفي أشجار الصنوبر
وفي الصخور المعلقة على مياهك
لتبق الذكرى في النسيم العليل المرتجف
وفي الهدير المكرر بين ضفافك
وفي الكوكب الفضي
الذى يضيء سطحك بأنواره الخفيفة
وليقل الريح الذي يصفر

والقصب الذي يزمر

والنسيم المعطر المنبعث منك

ليقل كل ما نراه وما نسمعه وما نتنفسه

لقد كانا عاشقين(*).

✸✸✸✸

(*) بآخر القصيدة هذا التعليق الذى يتضمن مقتطفات نصها :

« ولا مرتين نفسه هو القائل» من المحيط الموجة الشاكية
من الرياح الورقة الهاربة
والفجر الذي يعقب المساء
والإنسان الذي يخطفه الموت
إنها كل الذكريات
والأطياف الغامضة الضاحكة
المكتئبة التى يمكن أن يحتويها عمر
معادة ومستذكرة
شعاعا شعاعا
وزفرة زفرة
إنها النفس التي تتدرج من ضوء إلى ضوء
تاركة وراءها الشباب
والحب والتوهم والصراع واليأس
وتقف مشدوهة
على ضفة اللانهاية
كل ذلك يبدأ بابتسامة
ويستمر بالنحيب لينتهي إلى
صوت البوق
القادم من الهاوية »

هكذا رأينا الشاعر ولقد سكب روحه في جمال الطبيعة متنعمًا بأفلاك الحب وفراديسه.

الوحـــدة(*)

أســــرِّح الطرفَ في الوادى الذي انبـــسطت
أمـــام عـــيـــــني ووجــــداني مــــرائيـــهِ
والشــمسُ تســبح نحــو الغــرب في طَفَـــلٍ
وقـــد جلســــتُ حــــزينَ الفكر عـــانيـــهِ
فى ظل «صـفـصـافـة»(١) أمـست كـهـولتُـهـا
تذرو الشـــجـــونَ على الوادي ومـــا فـــيـــهِ
أرى هنـــا غــــالبًـــا في وحــــدة عـــجــــبٍ
مـــــشــــــــردًا، وكــــأن القلب في تيـــهِ!

✡✡✡✡

كم يهـــدر النهـــر في واديــــه منطلقًـــا
وفـــوق أمـــــواجــــه وشـــــيٌ من الزَّبدِ
لقــــد تــــــــلوَّى على الوادي وســـار إلى
حــيث اختــفى مُـخْــدرًا في ظلمـــة الأبدِ

(*) نقلاً عن «أعلام الشعر الفرنسي» للعوضي الوكيل، والسيدة س. عبد الرازق صبري، يتقدمها: «قصيدة الوحدة إحدى روائع تأملات لامرتين الأولى، نظمها في سنة ١٨١٩م، وفي الجزء الأول من تلك القصيدة الرائعة ترسم لنا ريشة الشعر، في وداعة وحنان، صور الطبيعة ناطقة بجمالها وروعتها، وفى القسم الثاني يصور لنا ما يغيم في نفسه من سحب الحزن والألم ثم لا يلبث أن يتجه إلى الأمل في وجه الله، ثم تنتهي هذه القطعة بنزوة عابرة من نزوات القلب.
هذه القصيدة تعرض علينا مرائي شتى من آفاق نفس مفعمة بالحزن الممض والألم المرير، كانت عندها الطبيعة أول شيء تطلب منه المواساة، ولكنها وجدتها الآن لا تشفي لها غلة ولا تبل ظمأ، فولت وجهها شطر مرتبة أعلى، ألا وهي مرتبة المثل العليا».

(١) في الأصل الفرنسي «بلوطة» وقد اقترح علينا أن نغيرها هكذا معالي الأستاذ إبراهيم دسوقي أباظة باشا.

وفــــي البــحــيـــرة مـــاء راح في سِــنةٍ
قـــد لفّـــهُ عـــبـــقـــريُّ الصـــمت في بُرُد
نجم المســاء ســـمــا من عندهـــا صـعُـدًا
إلى الســمـــاء، ومـــا أبهـــاه في الصُّــعُــد!

✡✡✡✡

والأفق أطرافُـــه أبيــضّتْ جــوانبــهـــا
وازّيـــــنت ببــــخـــار أبيـــــض يَقَقِ[1]
فَـــمَلْكَةُ الظلِّ تســـري في جـــلالتـــهـــا
في مــوكـــبٍ بجــمـــال الظِّـــــل مـتـسـقِ
والشــمسُ في مـــوقف التــوديع باعــثـــةً
أشـــعـــةً قــبـــل أن تهـوِي إلى الغـسقِ
تـــــودِّع الغـــابـــةَ اظلمَّتْ مـــآربُـهـــا
لاحت على قـــــلة تســـمـــو على الأفقِ

✡✡✡✡

أرنو إلى الأرض روحًـــــا هائمًـــا قلقًـــا
لا يســـــتـــقـــرُّ من البلوى على حـــالِ
وليس في صـــورِ الأكـــوان قـــاطبـــةً
مـــــا ينقـــــذ القلبَ من همٍّ وبلبـــالِ
أمــــضي... وتلك المرائي ليس يجـــذبني
مـــا قـــد تضـمَّن من حـسْــن بهـا حـالِ

✡✡✡✡

والشـــمسُ تطـــلع للأحـــيــاء وحـــدهـــمُ
فـــمـــا يحـــس بهـــا الملحـــود في الجـالِ
أنقِّل العـــيـــن مـــا بين الربى عـــبـــثًــا
وأقطـــع اليـــوم من صـــبح إلى غـــسقِ

(١) يقال أبيض يقق أي شديد البياض كأصفر فاقع وأحمر قان (المترجم).

وأقطع الكون بـالـعـين الـتـي جـــــــهـــــلـت

مـــــداه فـــــي ظلمــــة تطغى وفي ألـقِ

وهـل لمثـــــــلـي مكان في رحـــــائبــــــه

فـيـه ســـــعـــادةُ روحٍ في الحـيـاة شـقـي؟

لم تنتظرنـيَ يومًـــــا فـــي جـــوانبــــــه

ســـــعـــادةٌ، فـــتـــولتني يــــــــدُ القلقِ!

✡✡✡✡✡

لكنْ هـــنالك شـــمسٌ جـــدّ ســـاطعــــةٍ

شـمسٌ حـقـيـقـيـــةٌ، في عــــالم ثانِ

نهــــايــةُ الفُــــلك الدوّار مطلعـــــهـــا

بثت ســـــنىً في ســــمـــــاواتٍ وأكـــوانِ

هل لي ســـمـــوّ بروحي وهو في جـــســـدٍ

مــــركّب الجـــســـمِ من أخـــلاط أدرانِ

إلى مـــدى فـــيــــه ألقى كل مـــا حـلمتْ

بــــــه أمــــانــــــيّ قلبٍ فيّ ظمـــآنِ!

✡✡✡✡✡

هـنـــــــــاك أثـمـل مـن ورْدٍ ومـن نـهـــــــلٍ

يــــا طالما رمْـــتـــه من قـــبل ســلســـالا

هناك ســوف ألاقي الحبَّ مـــبــتـســـمًـــا

هـنـاك ســـــوف تـلاقـي الـنفـسُ آمـــــــالا

في باحـــة المَـــثَل الأعلى وســــاحـــتــه

ترنو إليـــه قلوبُ الناس مــــخــــتــــالا

فــمـــا له اســـمٌ بظهـــر الأرض نعـرفـه

مــــا طـــــاف قطُّ بدنيـــــانا ولا جـــالا

✡✡✡✡✡

يا مــركبَ الفــجـرِ، هل لي فــيك منفــسَحٌ؟
يا مــوكَب الفــجــر، هل لي مــوضع فــيكا؟
أمــضـــي إلى هـــدف مـسـتـبـهمٍ بكَرتْ
نفــســـي إليـــه يُقَضّ الروحَ تشـــكيكا!
منفـــاي في هـــذه الدنيـــا برِمت به
قـــد ضـــقتُ يا أيهـــا المنفى بما فــيــكا؟
فليس بيـنـي وبـين الأرض مـن ســـببٍ
يا قلبُ مـــاذا تَرى في الأرض يســبـــيكا

✡✡✡✡

إذا هوت من ذرا أغـــصـــانِهـــا ورقـــةْ
والشـّـمس في موقف التـوديــع مـحـتـرقـةْ
تهبّ ريـــحٌ فـــتــذروهـــا وتحـــملهـــا
إلى عـــوالـمَ لـم تحلُم بـهـــا حــدَقـــةْ
وإنني مــــثلهـــا، لا شـــيء يفْـــرِقني
عنهـــا ولا هي عنـي قـــطّ مـــفـــتـــرقـــةْ!
هيـــا احـــمليـنيَ يا ريح الشـــمـــال ولا
يـأخـــذْك في العطفِ بي عطفٌ ولا شـــفــقـــةْ!

****

الوحـــدة (*)

لدى سَـــــرْحــــــةٍ من فـــــوق قُلَّةِ شـــاهق
جلســـتُ شـــريدَ الفكر منشـــعبَ القلبِ
يشــيِّع طرفي الشـــمسَ عند دلوكـــهـــا
ويرقـب من تـلك المشـاهد مــا يُصـبِي
إذِ النهـــرُ صـــخّـــابٌ تلاطَمَ مَـــوْجُـــهُ!
قـد انسـاب في الوادي فـأمـعن في الشِّـعبِ
وإِذْ طرفُ أمــــواجِ البـــحـــيــــرة راقـدٌ
تراءى نجــوم الليل في غـــمـــرها الرحبِ
ومــا زال ذوبُ التِّـــبـــر بعـــد غـــروبهـــا
يُنيـــرُ أعـــالي الدوْحِ فــوقَ ذرى الهـــضْبِ
وراح مليكُ الليل يخــــتـــــال صــاعـــدًا
إلى عـــــرشـــه العلويّ في رفـــــرفٍ رطبِ
وفي جنبـــات الأرض تبـــرٌ مـــشـــعـــشعٌ
به ازدهر الأفقُ الجــــمـــــيلُ من السَّكبِ
وقـــد رَنَّ في الأجـــواء ناقـــوس مـــعـــبـــدٍ
رنينًا يهـــز القلب في البـــعـــد والقــــربِ
فكفَّ عن الأعـــــمـــــال فـــلاّحُ قـــريةٍ..!
وقــد وقف الغــادون من خـــشـــيـــة الربِّ
قــــد اخـــــتلطـــت تلك الأرانينُ بالذي
تَبَـقّــى من الضـوضـــاء في يومنا المُصـبِي

(*) ترجمة عبد الجبار الرحبي ونشرها في الرسالة العدد ٨٨ (١١ مارس ١٩٣٥) ص٣٩٩، وأهداها للأستاذ الزيات.

ولكنَّ نفـــســـــي من مـــبـــاهـــج مـــا رأتْ
من المنظر الفـــتَّـــان خــلو من الحـــبِّ!!
أجل! كـــانت الدنيـــا بعـــينـــي كـــأنهـــا
خـــيـــالٌ مطيـــفٌ لا يقـــرُّ على هُـــدْبِ
وهل تدفيء الموتى من الشَّـــمس شـــعلةٌ
تشعّ على الأحـــيـــاء في الســـهل والكُثبِ؟
أقلّب طـــرفي في الجـــبـــال وفي الربى
وفي الشـــفق البـــاكي من الشـرق للغـــربِ!!
وفي القـــفـــر، والمأهول، في غـــسق الدجى
لأنفضَ مـــا فـــيـــهـــا؛ فـــأبلغ من إربـــى
عـــسى أن أرى لي في مـــحل ســـعـــادةً
ولســـت بـــلاقٍ أو أغـــيَّـــب في التـــربِ
ومـــا تصنع الوديـــان لى، وجـــواســـقٌ
على الســفح بل تلك القــصــور التي تصــبي
إذا هــي لا تبـــدو لعـــيـــني جـــمـــيلةً...
ولا ســـحـــرها ينفي بفـــتنتـــه كـــربي!!!
ألا يا مـــغـــانـــي الأنس أنت عـــزيزةٌ
عليّ، ولكـــن قـــد خلوتن من حِـــبِّـي
لغـــيـــبـــة مـــخلوقٍ مـــدى الدهر واحـــدٍ
أراكـــنَّ قـــفـــرًا في عـــيـــوني، وفي قلبي
ســـواء أتبـــدو الشـــمس أم هي تخـــتـــفي
وتصـــحـــو ســـمـــاء... أم تَلَفَّعُ بالسُـــحب
ويظلم ليـــلٌ... أم ينيـــر صـــبـــاحُـــهُ
ويســـعـــد أو يشـــقى أنيس معَ السِّـــرب

فليـــس لنفـــســــــي في نهـــاريَ بغـــيـــة
ولا في غــــدي مـــا دمت أحـــيــــا بــلا لُبِّ
ولـسـت أرى إذ أتَّـبِـع شـــــــــمـس نـاظـري
تدور على الأكــــوان في أفـــقـــهـــا الرحبِ
أجــــــل لا أرى إلا فــــــراغًــــــا وخـلـوةً
لنأي حـــبــيـــب ليـس يُلْفَي لدى التـــربِ
ومـــا حـــاجـــتي في من تظلله السَّـــمـــا
ومن تحت نور الشــمس يهــتــزّ كــالقُــضْبِ
وخلف مـــدار الشَّـــمسِ شـــمسٌ مـــدارها
علـى عـــالـم أسـمـى تمنّع بالحـــــجب...!!
فلو أن نفـــســـــي أُطلِقتْ من قـــيـــودها
لأَلْفت حـــبـيب القلب يحـــيــا مع الشُّـــهبِ
فـــأســـعـــدُ باللقـــيـــا، وأنعمُ بالمنى
وأحـــســو رحـيق الخُلْد من ريقــهـا العــذبِ
لدى مُـــتَـــع لم تهف يومًـــا بمســـمعٍ
ولا خـطـرت فـي فـكـر ذي شـــــــغـفٍ صـبِّ
وأنَّى لـنفـــســــي أن تـطيـر فنلتــــقي...
وقـــد قُـــيــــدت من حـــمـــأة الطين بالجـــذبِ
فـــيـــا ليت شـــعــري لِمْ قـــضى اللهُ أن أُرَى
شـــريدًا؛ وخلِّي ليس ينعـــشـــه قـــربي
إذا مــــا ذوت أوراقُ دوح بمـرجـــــهـــــا
وأسلمـــهـــا قـــرُّ الخـــريف إلى السَّــــلبِ
وهـبَّـت مـن الـقـطب الـريـاحُ زعـــازعًــــا
عليـــــهـا فـألقـتـهـا أباديـــدَ في التُّــربِ

وحـــالـي شــبــيــهٌ في حــيـــاتي بحـــالـهـــا

فــيـــــا ويح نفــسي من زعـــازعــهـــا النّكبِ

ألا فـــانثـــــريني يا أعـــاصــيــرُ مــثلمـــا

نـثـــــــرتِ من الأوراق في جـــــــــوّك الرحبِ

فــــمـــــا بعــــد هــذا الصـــــبح إلا دجنَّـــــةٌ

ومـــا بعــد يأســـي وانفـــرادي ســـوى خطبي

****

الوحـــدة[*]

جلست محزون القلب مستطار اللب على قمة
الجبل، وتحت ظلة السنديانة العتيقة، أشيع شمس
النهار وهي تغرب، وأسرح بصري في وجوه السهل وهي تتغير

✡✡✡✡✡

فهنا النهر صخَّاب الموج، جيَّاش الزبد
ينساب في جوف الوادي، ثم يضل في ظلام البعد!...
وهناك البحيرة راكدة السطح، راقدة الماء
تتراءى في جوانبها نجوم الليل!..

✡✡✡✡✡

والطفل[1] لا يزال يلقي على رؤوس الجبال الشجراء ومضًا من شعاعه
وملك الليل[2] قد أخذ يصعد إلى عرش السماء في محفته الندية
فأشرقت جوانب الأرض، وازدهرت حواشي الأفق
وناقوس الكنيسة القوطي هب يقرع الهواء برنينه الديني
فكف الفلاح عن العمل، ووقف السائر عن المسير
واختلطت هذه الأرانين المقدسة بما بقي من ضوضاء النهار وصخبه!

✡✡✡✡✡

(*) ترجمة أحمد حسن الزيات في الرسالة، العدد (٨١)، من السنة الثالثة (٢١ يناير ١٩٣٥) ص(١١٢)، وما بعدها ثم جاءت في كتابه «من الأدب الفرنسي» الذي طبع بعد ذلك تحت عنوان: في ضوء القمر» ص(١٨٣)، وما بعدها، يتصدرها: «استسلم لامرتين بعد فجيعته في حبيبته إلى الهم، واستأنس بالوحدة، واستكان للعبرة، وخلا إلى الحزن في خلوات (ميلي)، ومن هناك بعث إلى صديقه (فريو) بهذه القصيدة في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٢٨؛ وهي:»

(١) الطفل: قبيل الغروب (المترجم).

(٢) ملك الليل: القمر (المترجم).

ولكن نفسي كانت من كل هذا خلية!..
فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة
ولا تلك الصور الجميلة نشوة ولا بهجة!..
لقد كنت أتأمل الأرض كأنها ظل منتقل أو خيال طائف!
إن شمس الأحياء لا تدفئ الموتى!..

☆☆☆☆☆

كنت أنقل عيني من الربى إلى الجبال
ومن الجنوب إلى الشمال، ومن ظلمة الغسق إلى حمرة الشفق
وأنفض[(١)] السهل والوعر، والمأهول والقفر
عسى أن أجد لنفسي سعادة في مكان
أو أتوسم لقلبي راحة في إنسان
فلا أعود بطائل!

☆☆☆☆☆

وماذا تصنع لي هذه الوديان والأكواخ والقصور
ما دمت لا أجد لجمالها في عيني روعة
ولا لسحرها في قلبي فتنة؟..
أيتها الأنهار والأحجار والغابات والخلوات العزيزة عليَّ!
إن غيبة مخلوق واحد من ربوعكن
جعل عامركن خرابا، وَرَدَّ أنسكن وحشة!
سواء عليَّ أتطلع الشمس أم تغرب
وتصحو السماء أم تغيم
ويظلم الليل أم ينير الصبح
فليس لي بغية في اليوم ولا رجية في الغد

☆☆☆☆☆

---

(١) نفض المكان: نظر إلى كل ما فيه ليعرفه (المترجم).

وحينما أرسل عيني تتبعان الشمس في مدارها الرحب القصيِّ
لا أبصر في كل مكان غير الفراغ والخلو!..
لا حاجة لي إلى من تظله السماء
ولا رغبة لي فيما تنيره الشمس

✲✲✲✲✲

ولكن من وراء هذا الفلك الدائر
وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى
تسطع فيها الشمس الحقيقية!..
فلو أتيح لنفسي أن تخلص من قفصها
لرأت في تلك السموات حبيبها
الذي طالما بكت عليه وحنت إليه!..

✲✲✲✲✲

هنالك أنتشي من رحيق الغبطة
وأظفر بالأمل والمحبة
وأنعم بما تاقت إليه نفسي من متع لا تمر على سمع
ولا تدور بخلد
ما أعجزني أن أطير إليك
وأنا مثقل بقيود المادة
خاضع لجاذبية الأرض!
وليت شعري لماذا قضى الله أن أبقى إلى الآن في أرض المنفى
وما تربطني بها رابطة
ولا تصلني بأهلها صلة!

✲✲✲✲✲

إذا ما ذوت الأوراق في المرج
وأسقطها قر الخريف في الوادي

هبت عليها الشمال فذهبت بها أباديد!
وأنا بهذه الأوراق الذابلة أشبه !..
فاحمليني أيتها الريح كما حملتها
وانثريني في وجوه الفضاء كما نثرتها
فما بعد الصباح إلا المساء، وما بعد اليأس والوحدة إلا الفناء!

****

الوحـــدة (*)

غالبًا... على الجبل... وفي ظلال بلوطة معمرة
أجلس ساهمًا حزينًا والشمس في ساعة الغروب
أسرّح الطرف هنا وهناك في رحاب الوادي
الذي انبسطت أمام عيني لوحاته المختلفة

✡✡✡✡

هناك يسمع هدير النهر ذي الموجات المزبدة
والذي يتلوى تلوي الأفعى ثم يختفي في ظلمات الأبد
وهناك البحيرة الساكنة بمياهها النائمة
التي يرتفع من عندها كوكب الليل في السماء الزرقاء

✡✡✡✡

وعلى قمم الجبال، المتوجة بالغابات المعتمة
تلقي الشمس شعاعًا أخيرًا
وبخار عربة مكللة الظلال
يصعد... فتبيض به أطراف الأفق!

✡✡✡✡

ومن مقر الأجراس في الكنائس القوطية هندسةً وبناءً
تنطلق نبرات تصوف ورهبانية في الهواء
يقف العابر، وأجراس في الحقول مبعثرة!
تمزج بآخر ضوضاء اليوم أنغامًا قدسية!

(*) ترجمة العوضي الوكيل والسيدة س. عبد الرازق صبري، ضمن «أعلام الشعر الفرنسي»، ص(١٦) وما بعدها.

وأمام تلك اللوحات العذبة، لا تشعر نفسي التي يستوي
أمامها كل شيء
لا تشعر أن بتلك اللوحات جاذبية أو تغييرًا
إننى أتأمل الأرض كروح هائمةٍ تائهةٍ!
إن شمس الأحياء لا يمكن أن تشعر الموتى بحرارتها!

✡✡✡✡✡

أنقل العين من ربوة إلى ربوة!
من الجنوب إلى الشمال ومن الفجر إلى الغروب
أقطع جميع نقط ذلك الامتداد غير المحدود[١]
ثم أقول: إن السعادة لا تنتظرني في أيّ جزء من أجزائه

✡✡✡✡✡

ولكن ربما كان هناك عند حدود الفلك
أماكن تنير فيها الشمس الحقيقية سماوات أخر
لو استطعت أن أسمو بروحي من أدران هذا الجسد وأدعه في الأسر
فسيظهر أمام عيني كل شيء طالما حلمت به!

✡✡✡✡✡

هناك سأثمل من المنهل الذي أبتغي
هناك سوف ألقى الأمل والحب
والمثل الأعلى الذي تتوق إليه كل نفس
والذى ليس له اسم في المقام الدنيوي!
يا موكب عربة الفجر... أليس لي موضع فيك؟
ثم أنطلق إلى هدف مهم لآمالي
لماذا أنا باق في هذا النفي؟
إنه لا توجد أية صلة بيني وبين الأرض!

✡✡✡✡✡

(١) لعله يقصد امتداد الزمان والمكان (المترجم).

عندما تسقط ورقة من غصن في الحقل...
تهب ريح المساء فتذروها في الوادي
وأنا... إنني مثل تلك الورقة الذابلة
احمليني واذهبي بي أيتها الرياح العاصفة!

****

العزلة (*)

تخذت جلوسي في الغروب مواظبًا
على هضباتٍ من جبالٍ أحبّها
وأبقى حزينًا تحت ظلٍّ يظلني
لدوحة بلوط عجوزٍ ألفتُها
أسرِّح أنظاري على السهل إذ أرى
مناظر قد ماجت أحنّ لسحرها
هنا النهر والزَّبد الغزير تلاطما
بموجات تيارٍ تهادى هديرُها
أراها على سطح المياهِ تعرجت
ومال إلى القاع العميقِ اندفاعُها
وألمح عن قرب سكون بحيرةٍ
وقد رقدت دون اصطخابٍ مياهُها
وأرقب إقبال المساء بلهفةٍ
فيبزغ نجمٌ ثاقبٌ في سمائها

وفوق ذُرى هذي الجبال وحولها
أكاليل غابات تبدَّى قتامُها
ترامت بقايا من شعاع مردّه
إلى الشفق البادي على غرب جوِّها

(*) ترجمة محمد أسعد ولاية، ضمن مختارات ص (٢١) وما بعدها يتصدرها «هذه القصيدة التي تغشى مجموعة من الخيالات والتأملات نظمت في شهر أغسطس عام ١٨١٨ في ميلي، حيث كان يعيش «لامرتين» منذ أشهر عدة بمنزل والده، في عزلة، حزين النفس، لأنه مني بوفاة أحب إنسان إليه».

وكــان اقــتــرابُ الشــمس من جــوف خــدرها
يضـيء حـــــواشـــي الكونِ بعـد بنورها

وحـــينئـــذٍ أرهـــفت ســـمـــعي لهـــاتفٍ
ســـرى صـــوتُه فــوق الهــواء منبِّـــهـــا
وقـــد وقف الســـاري لصـــوتٍ مـــقـــدسٍ
ودقـــــات ناقـــوسٍ تعـــالَى ضـــجــيــجــهـــا
تخـالطهـا ضــوضـاء يـــومٍ قـد انقـضـى
بأنغـــام تـــرنيـمٍ طهـــــور حَـــدا بهـــا

ولكنَّ نفـــســـــي في شـــرود وحـــســـرةٍ
فـمـا مـيـزت نفـسـي الشـرود جـمـالَهـا
ولســـت إخـــــال الأرض إلا كظلهـــــا
تــــزول إذا حـــان اقـــتـــراب زوالهـــا
كـــمـــا أن شـــمس الدفء للنــاس لم تعـد
تدفّئ أجـســـــادًا طواهـــا مـصـــيـــرُها

أقـلّب أنظـــــاري وأســـــبح طائفًـــــا
بفكري على الآكـــام أسـبـــر غَـوْرهـــــا
وأطـــوي جنـــوب الكون حـــــتى شـمـــــاله
من الفـــجــــر حـــتى تدخل الشـــمس خــدرَها
أقـــول وقـــد أعــيــانيَ البـحـــــث يائسًـــا
نصـيـبي تقـضـّى في السـعـادة وانتـهـــى

فـــأي نصـــيـــــبٍ لي أرجّـــيـــه في الدنـا
ونفـــســــــيَ قـــد ملّت وزال ســـرورها؟

ومــــا هـــــذه الـوديـــــانُ تلتف حــولـهـــــا
قـــــصـــــــــورٌ وأكــــــــــواخٌ تراءى رواؤها
ســـوى باطلٍ في عـرف مـــــثلي وحـــــسِّـه
ولســــت أبالي أن يغـــيــــب خـــيـــالـهـــا
ألا يـــا زهـــورًا فـي الـرياضِ تضــــوعت
ويا صـــخـــر يـــا غـــابـــات غـــال بـهـــاؤها
بنقـــصـــان ذاتٍ مــن رياضـــــك أقـــفـــرت
مـــغـــانيك وامـــتـــد الحـــــداد بســـاحـــهـا

وإنـــي وإن دارت ذُكــــــاء وأشـــــــــــرقـتْ
وغـــابت مـــســـــاء، ثـــم زال ضـــيـــاؤها
بغـــيــــــر مـــبـــــالاةٍ أراها تعـــاقـــبتْ
وســـيّــانِ عندي نشـــــرُها وغـــيـــابُها
وهـــــــل هـــي في جـــو تبـــدّى قـــتـــامـــةً
أم الجـــو صـــــاف في مـــدى حـركـــاتهـــا
فـــأيّ نصـــيب لي مـــــن الشـــمس والدُّنا
ومــن دورة الأيـام فــــــــــــي دورانـهـــــا؟

وحـــــيــــن يواتينــــي اللحــــاق بذاتــــــه
وألقـــاه في الـدار الفـســـــيح رواقُـــهـــا
ســتـبـصـر عـيـناي الفـضـاء ورحـبـــــه
وتبـدو الصـحـارى في خـضـــــمّ رمـالِها
ولست لمـا يذكي الضـــيــــاء بحـــاجـــةٍ
ولا بغـــيــــةٍ فـــي الكـــون أرجـو نوالـهـــا

ولكنْ عــســـى في عـــالم الخُلد عندمـــا
يتــاح لنفــســـي ترْك أرض سـئـمـتُـهـا
هناك أرى شــمس الحــقــيقــة أشــرقت
وعمّ ســـمـــاواتِ الخـــلود ضـــيــــاؤها
فــيــبــدو أمــامــي من فُــتنت بحــبــه
ومن طالمـــا الأحـــلام عنـــه حلمـــتـــهـا

هـــــناك أراني قـــــد ثمِلْت وأننـــي
ظفِـــرت بـأنفـــاس أتـــوقُ لشــــمّــهـا
هــــناك أراه وهو رمـــــزُ مـــحـــبّـــتي
وأبـــلـغ آمــال الحُـــشــاشـــة كلّهـــا
فـــهل كل نفــــس تبــتـــغي مـــا أردتــه
وهل في خـــيـــالي صـــورةٌ من خـــيـــالهــا؟
وهل لـيس فــــي دار الفنـاء لإســــمـــه
وجـــود كـمـا تــذرو الريـاحُ هشـيـمـهـا؟

وهـــــل لـيس فـي الإمـكـان إدراك مـطـلـبـي
بمركــبـــة في الفــجــر يمتــدّ ســـيــرُها
ألا أيهـا الشـــيءُ العــمــيــقُ غــمــوضـه
أمـــانيَّ أن ترقى بنفـســي، فـــقـــم بهــا
لماذا أنـا بـــــاق بمنفــــــاي إننــي
ســئـمت عــلاقـاتــي بـأرضٍ كـرهتُــهـا؟

إذا ســـقطت فـــــوق المروج وريقــــةٌ
ســتـــحـــملهـــا ريـــحُ المســـاء بذيلهـا

وتقــذفــهــا قــذفًـــا بغـــيــــر هـــوادة

إلى هـوّة الوديـــان فـــور ســـــقـــوطهـــا

وإنـــى شـــــبــيـــهٌ بالوريقـــة حـــينمـــا

عــراهـــا ذبـــول نمّ عنــــه اصـــــفـــــرارها

فـــهــيـــا أيا ريــــح الشـــمـــال وعَـــجِّــــلي

بحـــمــــلي وقـــذفي في الدياجـيـــر مـــثلـهـا

✱✱✱✱

العـزلـة (*)

ما أكثر جلوسي على الجبل
تحت ظِلِّ شجرة البلوط العتيقة
أُشَيِّع الشمس في مغيبها
حزين القلب، مكلوم الفؤاد
أسَرِّح نظري عَرَضًا في السهول المنبسطة أمامي
غير عابئ بالمناظر الخَلاَّبة
التي لا تفتأ تتغير تحت قدمي

✲✲✲✲✲

فهنا يَهْدُر النهر ذو اللجج الصَخَّابة المزبدة
مُتَلَويًا منسابًا حتى يتلاشى في دياجير البُعْد
وهناك البحيرة الساجيَة تبسط مياهها الراكدة الساكنة
وهنالك نجم المساء يطلع في الأفق
مشرقًا في السماء الصافية

✲✲✲✲✲

وعلى قُلَلِ الجبال المتوَّجَة بالأحراش القاتمة
يُلقي الغروب آخر شعاع من ضيائه
وعربة ملكِ الظلام المحاطة بالأبخرِة الأثيرية
تصعد بجلال وبهاء مُبَيّضة حوافي الأفُق
وعلى حين فَجْأةٍ، ترتفع من القُبَّة القوطية(١)

(*) ترجمة جورجى نيقولاوس، ونشرت في مجلة العصور بالعدد (٢٧) من المجلد السادس، نوفمبر ١٩٢٩ ص (٦١٨) وما بعدها.

(١) نسبة إلى القوط Gothic وكان لهم هندسة بناء خاصة أصبحت على الأرجح رمزًا لبناء الكنائس والأديرة في القرون الوسطى (المترجم).

نَغْمَةٌ دينية تفشو في أرجاء الفضاء
فيكف المسافر عن السير مُصغيًا خاشعًا
وقد مزج الناقوس الخلوي ألحانه المقدسة
بصَخَب النهار المكتهل وضوضائه
ولكن نفسي القَلِقَة المضطربِة، الهازئة بهذه الرُؤْيا الفَتَّانة
لم تكن تشعر بارتياح ولا ببهجة
فكنتُ أتأمل الطبيعة دون أن يَنْفذ فيَّ سِحرها
كأنى ظِلٌّ ما لا يَعي ما يرى، ولا يَحْفَل بما يحِفُّ به
لأن شمس الأحياء لا تُدفئ الأموات.
وَعَبَثًا كنت أنقل طَرْفي من رَبْوَة إلى أخرى
وأُسَرِّح بصري من الشمال إلى الجنوب
ومن بهاء الشروق إلى رَوْعة الغروب
متطلعًا إلى كل نقطة في الفضاء الواسع
ولسان حالي يقول: ليس لك في كل هذا من سعادة.

✡✡✡✡✡

ماذا عسى أن تَؤَثِّر فيَّ هذه الأودية والقصور والأكواخ؟
لقد تَفِهَت في نظري، ولم يعد تُصيبنى منها فِتْنَة، ولا يخامرني سِحْر
فالأنهار، والصخور، والغابات، والخَلَوات العزيزة عليَّ
أصبحت مُوْحِشَة
إذ ينقصها شخص، كان يملأها حياة، ويهبها رُواءَ

✡✡✡✡✡

سواءٌ لديَّ أذرَّ نسيم السَحَر، أم هَبَّت نسمَات الأصيل
أشَرقت الشمس أم تولاها الأفول
أَتَلَفَّع الشَفَق بغمام رقيق، أم اتشح الغَسق بالسُحُب الداكنة
فقد صَرَفْتُ عيني عن هذا كله، متنكبًا الطبيعة ونظامها

إذ لم يبق في نفسي شيءٌ من الأيام.

✡✡✡✡✡

متى يَتَهَيَّأ لي أن أتبع الشمس في محيطها الفسيح؟
فهنا لا ترى عيناي غير فضاء وفلاة
فلا تصبو نفسي إلى شيء مما تُنيره
ولا أبتغي من الدنيا حِلْيةً أو مَتاعًا

✡✡✡✡✡

ولكن قد يوجد وراء حدود دائرتها
أمكنة تُنير فيها الشمس الحقيقية سماوات أخرى
فيا حبذا لو تسنى لي ترك غلافي المادي في هذه الأرض
والصعود بجوهري في الأثير السماوي
بعدًا لناظريَّ ما طالما تمنَّيته وشغِفت به

✡✡✡✡✡

فهنالك أَرْتَوِي من اليَنْبوع الذي تَتُوق نفسي إليه
هنالك أجد الأمل والحب
هنالك أحصل على النعيم الذهني الذي تتمناه كل رُوْح
ذلك النعيم الذي ليس له اسم في مَثوانا الأرضي

✡✡✡✡✡

لَعَمْرى لو أُتِيحَ لي أن أصل إليكِ، أيتها البُغْية المُبْهَمة
محمولاً على غارب الفجر...
إذًا ما شأني في أرض منفاي؟
ولأي سبب طال فيها مُكْثي واغترابي؟
وأنا لا أتوسل بزلفى، ولا أَمُتُّ إليها بصلة

✡✡✡✡✡

إذا ما سَقَطَت أوراق الأشجار في المُروج

تلقَّفَتْها ريح المساء، منتزعة إياها من الوديان
وما أشبهني بهذه الأوراق الذاوية...
فاحمليني أيتها العواصف الهوجاء، وذَرِّيني أيتها النكباء
عَلِّيَ أحظى بِمُناي، وأفوز بِمُشتهاي.

****

العزلة (*)

طالما كنتُ أجلسُ في الجبل
تحت ظل شجرةٍ من بلوط
وقد خيَّم الحزن على صدري
فكنتُ أسرّحُ الناظرَ في السهول التي نشرت أمامي أحاسن محاسنها
يتلو بعضها البعض
وقد أخذت زخرفها وازينت وأنبتت من كل زوج بهيج
وقد آذنت ذُكاء بالغروب
مرتدية حلتها الصفراء تعلوها الكآبة
ولا أدري إن كان ما ألمَّ بها توجعًا ورحمةً لي
أو ألم البين والفراق
أمامي النهرُ يُزمجر بأمواجه الزاخرة المزبدة
وينساب كالأفعى وسط الرياض
وهناك البحيرة الساكنة كالمرآة الصقيلة
وقد ارتسم كوكب المساء على صفحات الماء
وكانت الجبالُ التي تحوطني متوجة بغابات قاتمة
رمى عليها الشفق أشعته الأخيرة
لم تك هذه المناظر الجميلة لتروقني
أو تنفحني ببعض سرور ينعش القلب
بل كنتُ أشاهد الأرضَ كظلٍ متنقل

(*) ترجمة محمد كامل حجاج، ونشرت في مجلة الزهور، السنة الأولى ص ٣٥٣ ولعل هذا النص أقدم ما يعرف من قصائد لامارتين المعربة.

كما أن شمس الأحياء لا تدفئ الأموات
كنت أنقل الناظر من أكمة لأكمة
ومن الشمال إلى الجنوب
ومن الشرق إلى الغرب
فلم أظفر بهناء يخفف ما بي من ألم الكآبة والوحشة
ماذا تفيدني هذه الوديان والقصور والأكواخ التي لا أعبأ بها
إذ لا أجدُ بها ضالتي المنشودة
وما كانت لتشرح صدري هذه الأنهار والصخور والغابات
ما أنا فيه من الانفراد والعزلة
وإن غاب عن عيني عزيزٌ واحد
فالدنيا بأجمعها تكون أمامي قفرة موحشة
لا أحفلُ بشمس تتبعها عيني
في مسيرها من الشرق إلى الغرب
جارية في سماء صافية أو مكفهرة
إذ لا أنتظر شيئًا من الأيام
ولو استطعتُ أن أتبعها في مجراها
لكنت أشرف على الجو والصحارى
ولكني لا أرغب في شيء من جميع ما تنيرهُ
ولا أطلب أمرًا من هذا العالم العظيم
ولكن ربما كان بعد هذا الكون عالم آخر
تضيئه الشمس وتظلله سماء أخرى
ولو تسنى لي أن أترك جثماني في الأرض
وأصعد بروحي إلى السماء
لأنظر بعيني ما أراه في الأماني والأحلام
فهناك أنتشي من رحيق المنبع الذي آملُهُ

وأجد ما أتطلبه من الأمل والحب
وهذا غاية ما تشتهيه الأنفس
وليس له اسم في المقام الدنيوي
فلِمْ بعد ذاك أمكث في الدنيا دار النفي
إذ لا علاقة لي بها ولا شأن لي فيها
مثلي كمثل الورق الذابل حينما يتساقط في المروج
فتحمله الريح إلى الوديان
فاحمليني مثلها أيتها الشمأل العاتية.

****

الخلـــود (*)

كل ما في الوجود يسير بخطى واسعة إلى العدم
فالشمس لا تكاد تُشرق حتى يعتريها الزوال
فتُلقي في فترتها القصيرة على وجوهنا الذابلة أشعتها الشاحبة المضطربة
ليتلقفها الظلام بصفوفه القاتمة المنبثقة من كل صَوْب
ويبتلعها في دياجيره السوداء الحالكة
فيلفظ النهار أنفاسه
دون أن يترك من مروره أثرًا
ويضمحل كل موجود على وجه البسيطة ويزول
كأن لم يكن ثم أنيس ولا سامر
ولو وعى الإنسان حقيقة حاله
وتدَبَّر ما يقع تحت أنظاره
لاعتراه الهول الجزع
وتقهقر مذعورًا عن حافة الهاوية الفاغرة فاها لابتلاعه

(*) ترجمة نصيف جورجي نيقولاوس، ونشرت بالمقتطف، الجزء الرابع من المجلد الرابع والسبعين (أول أبريل ١٩٢٩) ص٣٩٥ وما بعدها، يتصدرها: «الفونس دي لامرتين (١٧٩٠- ١٨٦٩) شاعر فرنسي، رقيق العاطفة والشعور، تغلغل إلى سويداء الفؤاد فابدى مكنوناته، وتسلل إلى أعماق النفس وخوالجها، وقد نظم هذه القصيدة، وقدمها إلى فتاة مريضة، يائسة من الحياة، من رحمته تعالى، لأن آمالها بالخلود كانت محجوبة بغمامة أحزانها الكثيفة، وكان هو وقتئذٍ غريقًا في لجج من دياجير النفس وآلامها، ولكن الحزن والشك إن لم تكن لتأتي على مرونة قلبه، الذي كان يستسلم للشك في بعض الأحيان، ولا يلبث أن يعاودهُ معتقدهُ، فيسمو بآماله إلى الخالق عز وجل، لأن قبس التقوى الذي أشعلتهُ في فؤاده أمُّهُ الورعة، وظلت تضرمه بأنفاسها أيام الحداثة، يخبو حينًا من تأثير عواصف الدهر، ويكاد يُطفأ تحت وابل الدموع التي تستدرها الحياة، ثم يعود إلى الاشتعال حالما يخلو الشاعر إلى نفسه، لأن الباري يتجلى له مما يزيل كل حائل بينهُ؛ وبين أفكاره. وهذا ما كان يحدو به فجأة إلى نبذ الحزن العميق، والانقياد والتسليم لما يأتي به لأن الإيمان هو الأمل، والأمل أكبر معزٍ، وأعظم مخفف للآلام البشرية.

إذ من ذا الذي لا يخبرُ تفاهة هذه الحياة وغرورها
عندما يطرق أُذُنَيه نشيدُ الأموات يردِّد صداهُ الفضاء
أو زفرات عاشقة تودع أمانيها في شخص حبيبها الميت
أو أم حنون تدفن آمالها ومُنى نفسها في صدر فلذة كبدها الراحل
أو رنين ناقوس الحزن ينوح بوَلَهٍ
مُنْذِرًا الأنام برحيل تَعِس منهم
من دار التعب والشقاء، إلى دار الراحة والهناء
سلامًا أيها الموت !
ما أنت إلا مُنْقذٌ سماوي
تمسح يدك علينا فتبرئنا من آلامنا وأسقامنا
إنك لا تبدو لي بمظهر مخيف مُفْزِع كما يتصورك البعض
فذراعك ليست مسلحة بنَصْل مخَرِّب لا يُبقي ولا يذر
وعينك ليست عين غدر ولا خيانة
ووجهك لا يحمل أساريره سمات الصرامة والقساوة
فأنت رسول عُلْوي تخلّص وتُنقذ ؟
لا مُفْنٍ تلاشي وتُعدم
أرسلك إله رؤوف رحيم
حاملاً مشعل النجاة
لتخفف آلام الإنسانية
وتنُقذ بني البشر
وعندما أعيننا التَعِبَة تُغْلَقُ عن نور هذه الحياة
تُفيض أنت عليها نورًا
أشد سطوعًا
وأكثر تلألؤًا
فالأملُ بقربك إذا ارْتكَزَ على دعامة الإيمان

يفتح لي دنيا
أجمل من هذه الدنيا وأسعد
فتعالَ إليَّ
تعالَ لتنقذني من أصفادي الجسمية
تعال لتخرجني من سجني الترابي
هَلُمَّ إليَّ
وارتفع بي إلى مَنْ كل شيء أمامهُ «هباءً وعالاً»
أعِرْني جناحيك لأطير بهما إلى الكائن الأزلي
الذي هو ملجأي واعتمادي
وغاية أملي في دنياي وآخرتي
من ذا الذي أبعدني عنهُ ؟ ومَن أنا ؟ وماذا سيحلُّ بي ؟...
أسئلة تُرَدِّدُها نفسي الحائرة الوجلة
دون أن تجد لها جوابًا
فسأموت ولا أعرف الحياة .. وأنت أيتها الروح
أيها الضيف الغريب الحالُّ على غير معرفة
لقد طالما سألتك فلم تُحرْ جوابًا
فهلا رغبت عن صمتك، وأطلعتني على مكنونات سرك ..
أُناشدك الله أن تخبرني عن السماء التي أتيت منها قبل أن تحلَّ فيَّ
وعن القوة التي قذفت بك إلى هذه الكرة السريعة العطب
وعن اليد التي قيدتك في سجنك الصلصالي
وعن الرابطة الخفية العجيبة التي تربطك بالجسد الفاني
أي يوم ستنزح فيه عن هذه المادة ؟
ولأي مقرٍّ سماويٍّ ستغادر الأرض ؟
وهل تعيش بعد القبر في النسيان الذي كنت فيهِ ؟
أم سترجع إلى أحضان الله مُبْدِئك ومُعيدك

متخلصًا من قيودك الزائلة
متمتعًا بحقوقك الأبدية التي حباك الخالق بها كرمًا منهُ ومِنَّةً ؟
أجل، هذا هو أملي الوطيد أيتها الروح
يا من جعلك الباري نصف حياتي :النصف الباقي الخالد
فبهذا الأمل تشتد عزيمتي، وتتقوى نفسي، وتسرُّ أيَّما سرور
عندما تبصر على محياي الوسيم
اضمحلال ألوان الربيع الزاهية
وبه أتقبل بفرح لا يوصف
الموت الذي طفق يدبُّ في غصن حياتي الغضِّ ليهصره قبل أوانه
أمل ضائع
ورجاءٌ غير محقق
يقول أتباع أبيقوروس
فالحياة تمتُّع ولذائذ
وما وراء القبر غير العدم
فلا ثواب ولا عقاب
ومن التمس غير ذلك فقد أضاع دنياهُ
دون أن يجني من زهده غير خيبة الأمل
فتأمل أيها المغرور فيما حولك
فكل شيءٍ لهُ بداية ونهاية
كل شيء يولد ليموت وينقرض
فالزهرة تذبل في المروج إذا ما دار الفلك دورته
والأرز يهوي في الغابات تحت عبء السنين
والأنهار تجفُّ في مجراها من فعل الأيام
والسماء تشحب من مرِّ الغداة
وكرِّ العشي

وكوكب النهار الذي أخفى الزمن عنا مولدهُ يسير إلى محاقهِ
وسيأتي يوم يتطلع فيه البشر إلى السماء بدون خوف وذعر
أفلا تجد في كل هذا ما ينقض آمالك، ويهدُّ أمانيك ؟
فالعصور في الطبيعة تتكدَّس تكدُّس التراب فوق التراب
والزمن يطوي في أرماسهِ كل حيٍّ وجماد
والإنسان
الإنسان وحده في قعر جدثهِ
وعميق حفرته
يحلم بالبعث
ويأمل في الخلود
بعدما طوّحت بهِ أعاصير الموت
في لجج الفناء والاضمحلال
لكم منطقكم يا من تدَّعون العلم والمعرفة
ولي منطقي
فإذا كنتم ترمونني بالخطأِ
تدعوني أسعد في خطئي
فإني أحب
والحب هو الأمل
بل هو الخلود
فإذا استعنَّا بعقلنا في حل مشكلة البقاء
فالعقل يَهِنُ ويعجز
وحيث يعي الإدراك
يحيي الشعور لغريزتنا الطبيعة
تبدو لنا بأحلى المظاهر
ما ينتظر الإنسان بعد الموت من البعث والخلود

فلو تبدَّت لي أعظم فجيعة تصورتها مخيلة امرئ
فأبصرت في السهول السماوية
الكواكب تحيد عن سُبُلها
وتتصادم بعضها ببعض
وتتناثر أجزاؤها
وتتبعثر في الفضاء غير المحدود
وسمعت بأذني أنين الأرض
وحشرجة نزعها
ورأيتها سائرة على غير هدى
في ظلام اللانهاية
تبكي بنيها الذين لم يبق منهم عين ولا أثر
لو تَمَثَّل لي خراب العوالم بأجمعها
ودمار الكواكب بأسرها
وتكدَّست الظلمات فوق الظلمات
والأشلاء فوق الأشلاء
وبدا الموت مهيمنًا
والفناء مسيطرًا
ولبثت وحيدًا بين هذه المروعات
لما تزعزع إيماني بالكائن الرحيم قيد شعره
بل لظللت جاثمًا فوق هذه الأطلال،
منتظرًا بملء الثقة بزوغ فجر الأبدية
الذي لا يعتريه أفول
ولا يصيبه زوال
أتتذكرين عندما كانت تجمعنا تلك الأمكنة السعيدة
حيث ولد من نظرة واحدة

حُبُّنا الأزلي ؟
فكنا نُدلله تارة فوق قنن الصخور الشماء
وتارة على شواطئ البحيرات الهادئة
فنسير معًا
بعيدين عن العالم
محمولين على أجنحة السعادة والهناء
نغوص بأنظارنا في دياجير الحلك
التى أخفت عن أبصارنا مرأى الطبيعة الأخاذة بالألباب
ولكن جوقة كواكب الليل
لا تعتم أن تبدو
سائرة بسكون واتضاع
فتنير السهول والأودية
بنور كامد لا وهج فيه
لكنهُ يملأ القلب روعة وجمالاً
بنور أشبه بضوء المصباح
الذي يشعُّ في معابدنا المقدسة
حالما يسُود الظلام
فيأخذ على القلوب مشاعرها
ويملأ الأفئدة ورعًا وخشوعًا
وكنت في الانخطاف الروحي الذي يعتريك
تنقلين طرفي من السماء إلى الأرض
ومن الأرض إلى السماء
وتجثين صائحة بتدلُّهٍ : أيها الإله الخفي
إنا لنتأمل الطبيعة
فنرى ذاتك العلية متجلية في كل دقائقها

فالطبيعة هيكلك ومذبحك
وإذا رُمنا معرفة كمالك الإلهي
فما علينا إلا أن نتطلع فيما حولنا
فالدنيا شعاع من محاسنك
والنهار نظرة من نظراتك
والجمال ابتسامة من ابتساماتك
فالقلب يعبدك في كل ما تراهُ العين
والنفس تتَنَسَّمُك في كل ما يبدو ويبطن
والعواطف تنجذب إليك منسحقة في حبك
الذي يرفعها عن مستوى الثرى إلى مناط الثريَّا
والروح الخالدة توَّاقة إليك
لترتوي من ينبوعها السرمدي
وكان قلبانا يضمان تنهداتهما الصاعدة على أجنحة الشوق إلى الكائن الأعظم
فجثوتُ بجانبك
لنعبده في صنع يديه
رافعًا وإياك إلى مقامه السامي
مع الفجر والشفق
والغروب والغسق
فروض العبادة
الصادرة عن جوانح ملأى بالتقوى والخشوع
وعيوننا الساجية تتطلع إلى الأرض دار منفانا
وإلى السماء مقرِّنا ومثوانا
فيا حبذا، لو استجاب الله في هذه البرهة
دُعاء نفسينا الشاردتين
اللتين تريدان تحطيم قيودهما والعودة إليه

واصطفانا معًا
إذن لطارت روحانا إلى مصدرهما الأزلي
مجتازتين طبقات الأثير على جناحي الحب
وصعدتا إلى بارئهما
كما يصعد من الأفق
شعاع النهار عند انبثاق الفجر
وامتزجتا بأصلهما الأبدي
الذي هو مصدر كل حبٍ
لتمدّاه، وتسبحا بحمده
في أَزَلِهِ إلى أزَله.

****

الخلـــود(*)

سلامٌ عليك أيها الموت فإنك مُنجٍ علوي
مَن الذي وصمك بصفة الإرهاب والخطأ ؟
فما يدك مسلحة بمنجل هادم ،
وما جبهتك بقاسية وما عينك بخائنة
أنت لا تدمر بل تعطي يد السلم
كرسول سماوي يحمل شعلةً مقدسة
فإذا ما أغمضت عيني السادرة من النور،
تدركني في يوم راق،
عندما تجري ماء شؤوني.

☆☆☆☆

أملي في لقائك هو حلم بقبر
يحدو به إيماني لتذهب بنا إلى عالم أجمل من هذا ،
أقدم لتنجيني من قيودي الجسمانية
أقدم وافتح سجني؛ أقدم وأعرني جناحك
لم هذا الإحجام؟ لا تخف، لأنك مُلقٍ بنفسي؛
إلى هذا الكائن المجهول، حيث مبدئي ونهايتي
من الذي صدف بي عنه؟ ومن أنا؟
وماذا يجب أن أكون؟

(*) ترجمة كامل تهامي، ونشرت في السياسة الأسبوعية، العدد (٢٥٣) من السنة الخامسة (١. يناير ١٩٣١).

أموت ولست أدري لماذا ولدت ؟
وعبثًا أسائلك يا نفسي ؟
فإنك ضيف غير معروف
قبل أن تحلي بي
أيّ سماء كنت فيها؟
وما القدرة التي ألقت بك في هذا العالم الفاني؟
وما اليد التي وضعتك في صلصال من فخار
وما هذه الصلة وبأي سر خفي،
تتبعين الجسم والجسم يتبعك؟

✡✡✡✡

متى يأتي اليوم الذي تفارقين فيه المادة
لتتركي الأرض إلى قصر جديد؟
وكل جديد إلى بلى
وكل شيء إلى حد
وكلٌ يولد ليموت
وفي هذه المروج الصفراء ترى الأزهار ذابلة
وفي الغابات ترى الشجر المتطاول الفارع
بعد حين ينثر أوراقه على الأعشاب ،
والبحر بعد تكاثر أمواجه يهبط
والسموات أيضًا قد شاخت
والكواكب منكدرات
والشمس مثلنا تسير إلى الاضمحلال

✡✡✡✡

ترى ما يحيط بك من الطبيعة؟
القرون تمر تلو القرون هباء

والوقت بقدم واحدة يهبط كبرياءك
وكل شيء يستحيل إلى نعش
والإنسان؛ والإنسان وحده
يا لعظم جنونه
في داخل قبره يبحث عن حياته
وفي عاصفة الفناء يحلم بالأبدية!
هذا ما يحدثك به آخر.

✡✡✡✡

يا عقلاء الأرض دعوني وخطئي
أنا أحب فيجب أن آمل
إن عقلنا الضعيف مشدوه ومضطرب

✡✡✡✡

أما أنا فإذا ما رأيت في فضاء الكون
هذه الكواكب تنحدر عن طريقها المعهود
متصادمات في الأثير أولاها بأخراها
والسموات منثرات على غير هدى
وأسمع اهتزازات الأرض الهاوية
في منتأى عن الشمس
وهي تبكي الإنسان الفاني
المفقود في فضاء ليل الأبد
وأشاهد آخر هذا المنظر المخيف
الموت والظلام
سأكون وحدي رغم ذعري

واقفًا منزهًا وصالحًا
وأملي منك بعد طوافك
من فجر الأبدية
على العوالم الفانية
تجدني في انتظارك أيضًا.

****

الخلـــود(*)

شمس حياتنا اصفرت وهي في فجرها.
ترسل على جباهنا الذابلة
ووجوهنا المنهوكة المتعبة أشعتها المضطربة
وأضواءها الحائرة
التي تغالب طلائع الظلام وتناصب هواجمه
الظل يمتد، النهار يموت، كل شيء يزول
وكل شيء يفر ويحول.
كم يهلع المرء لهذا المنظر الرهيب ويرتجف!
لشد ما يتراجع وهو راعش الأوصال مضطرب الفؤاد
عن شاطئ الهاوية المائلة أمامه!
بل لكم يخفق قلبه الضعيف، إذ ينصت من بعيد لتلك الأنشودة المظلمة!
تلك أنشودة الموت، ما زالت تتردد في أعماق صدره

(*) ترجمة السيد حسين تفكجي، ونشرت بالرسالة بالعدد (١٨٨) من السنة الخامسة (٨ فبراير ١٩٣٧) ص٢١٤، وما بعدها يتصدرها:

» أحبها فبادلته حبه، فراحا يرشفان أكؤس الغرام تحت ظلال الأشجار الباسقة. في أفياء الأدواح المنتشرة غنى لها لحن غرامه، فسمعه الطير على غصنه، وأنصت له العصفور على فننه، اختلسا النعيم ساعات معدودة، حتى رمى الدهر سهم التفرقة، فسافرت بعيدة عنه إلى باريس. انتظر كتابًا منها يطمئنه على صحتها يرجع الأمل إلى صدره، وإلى فؤاده أشعة الحياة. ولكن ساعي البريد أتاه بكتاب نعيها. مسكينة؟! أماتت «جولي». أوَ يموت من عاش لأجل الحب؟ لم يصدق عينيه. سار يخبط خبط عشواء، يردد ألفاظها، يقف الساعات الطوال مكانه يرجع أنشودة غرامها. إنها أمل رحل، وحب مقيم. نظم قصيدته «الخلود» فكانت قطعةً من قلبه الملتهب، ونشيدًا لفؤاده المضطرب. قضت «ألفير» «كما يدعوها» نحبها. فدبت إلى جسم «لامرتين» يد المرض.

كان في ريعان الشباب. ظن نفسه أنه على طريق الآخرة يسير. فلذا جاءت قصيدته «الخلود» جامعة لشتى معاني الفلسفة، والحب والجمال، والحياة والموت» مع مع إشارة بأنها قد تحيل على رواية رفائيل.

وتنتشر في أنحاء نفسه
وتلك الزفرات المتصاعدة والتنهدات المرسلة
والأنات المخنوقة، والأنفاس المتحشرجة، لهي آهات الحبيب
وزفرات الخليل، وانتحابات الولهى
تضطرب وتتراجع، تتقدم وتتأخر، حول سرير الموت
الناقوس الصغير ما زال يرسل الهمسات، ويعلو بالخفقات
أصواته التي تطويها معالم الفضاء تنبىء الأحياء أن شقيّاً بائسًا رحل
ومكدودًا تاعسًا إلى هوة القبر نزل
أحييك أيها الموت. أيها المنقذ السماوي
سوف لا تظهر أمام ناظري بهيئتك المرعبة
وبزتك الموحشة، وطلعتك المشؤومة
إن يمينك سوف لا تشارفني بمرهف ماضيك
إني لا أرى تجهم وجهك، ولا أقرأ في عينيك معالم الجريمة والخيانة
فأنت الذي تنقذنا من آلامنا، تخفف من أحزاننا
تأخذ بيمنانا لتقودنا إلى حيث الرب الرحيم
تَسْتَعْدِي رحمته على نكباتنا، وتستنزل رأفته على ويلاتنا.
إنك لا تميت بل تنقذ؛ إنك لا تهلك بل ترحم
إن يدك يا رسول السماء تحمل إليّ نبراسًا إلهيّاً
يوم تغمض عيناي الكليلتان أجفانهما
تأتي تحت الأضواء المنعشة لتبلل ناظري، وتغمض عيني
والأمل إلى قربك يطفر، يظلله الإيمان، تشده التقوى، فتفتح أمامي عالمًا رائعًا.
إليَّ أيها الموت. أقبل واكسر عني أغلال الجسد
بدد عن نفسي قيود الأوصال
افتح باب سجني، واكسر مغالق حبسي
وأعرني أجنحتك الرفرافة، وقوائمك الهفهافة

ماذا يمنعك عني؟ لماذا تتأخر؟
ماذا يعيقك عن زيارتي الأخيرة؟ تقدم إليَّ
فإني أريد أن أرمي بنفسي نحو ذلك الكائن المجهول
حيث أعرف سر حياتي ومماتي
أيّ شيء فصل عني؟ من أنا؟ ومن سأكون؟
أموت ولا أعرف ماهية الحياة وسر الوجود
وأذهب وأنا أجهل ما البقاء!
ما أنت أيتها الروح المبهمة
أيها الطيف المجهول، أيها السر الغامض
قبل أن أُردى في لحدي أريد أن أسألك:
أية سماء بحقك تسكنين؟ وفي أيّ عالم تعيشين؟
وأيّ قدرة إلهية رمتك إلى هذه الكرة المحطمة
حيث عالمنا الضعيف الهشيم
وأيّ يد إلهية قذفت بك إلى سجنك الفخار
واعتقلتك في محبس الطين؟
وأي سر عجيب ربطك بالجسد وربط الجسد بك
وأيّ يوم تنسلخ الروح فيه عن المادة؟ وتصبح عالـمًا بنفسها
تقوم بأودها دون أن تعتمد على الجسد البالي والجسم الفاني؟
إلى أين تذهبين؟ أتتركين الأرض الجميلة لترحلي إلى قصر منيف؟
هل نسيت كل شيء؟ أم ما زلت تذكرين؟
إن هناك القبر، فهل ستبعثين إلى عالم مجهول جديد؟
أتعودين إلى حياة أشبه وعالم أحكى وأمثل إلى حجر الله
حيث رأيت أشعة الحياة ولمست معالم الوجود
أم إنك ستفصلين من كل شيء تدب إليه يد الفناء؟
وتسير في عروقه دماء البلاء.

أستنعمين بمناعم الخلود الأبدية
وتلعبين في الجنان غير البالية؟ نعم، هذا أملي الوحيد يا نصف حياتي
تلك هي الأمنية
التي بها رأت الروح التي تضيء جوانب صدري
طرق الحياة
وكانت عزاء نفسي المتألمة التي قضي عليها بالسجن في هذا الجسد البالي
شهدت ربيع حياتك يرحل وألوانه البهيجة تموت وتذبل
وزهوره المتلألئة تسير نحو هوة الفناء
والحزن مازال يفتك بي، والموت يدير مني الخطوات
وأنا أجود بالنفس الأخير
ترتسم على شفتي الابتسامة، وتنهمل من عيني دموع الفرح
مقدمًا إليك كلمات الوداع الأخير
منتظرًا نظراتك لتشع في عينيَّ قبل أن يغمضهما الموت
أولئك الذين تعلقوا بأذيال المادة، وكانوا أشبه بالقطيع
يسيرون وراء راعيهم «أبيقور» سيهتفون
«يا له من أمل كاذب خُلَّب، قد مضى ورحل
عندما يرون معالم الدنيا قد قضت وانتهت.
وذلك العالم الذي ما زال يفحص أسرار الطبيعة؛
يود اكتشافها، يدرسها في زاوية مهملة تسمى العقل
سيقطع الدهر في فهم كنه المادة
يعيش في عالم الملموسات
يغفل عن الروح ولكنهم سيهتفون به.
أيها الأحمق، أيّ كبر سخيف يكسوك؟
انظر حولك! تأمل بناظريك!
كل يبتدىء لينتهي، وكل يدب نحو الفناء دبيبه.

إن سيرك نحو هدف ممثل، وإلى غاية نهائية هي «هوة الموت»
انظر إلى الحقل وقد علت أوراقه صفرة الذبول!
ألا ترى الزهرة تتعب وتضمحل ثم تلفظ الأنفاس؟
ألا تشهد في هذه الأحراج الملتفة
تلك السدرة العظيمة بجبينها الشامخ ونظراتها إلى العلياء
كيف هوت تحت ثقل السنين
ورزحت تحت أعباء الدهر
ثم امتدت على العشب النضير المنتشر على بطحاء الأرض؟
ألا تنظر الأنهار تنضب في مجاريها
والبحار تجف في قيعانها
وهذا الكوكب المتلألئ في السماء أخرت يد الزمن ولادته
وهذه الشمس، وما أشبهها بنا! إنها تسير إلى الفناء والعدم
وفي السماء حيث الأموات ينتظرون يومًا به ينعمون
تأمل حواليك الطبيعة
مرت الأجيال فتكاثفت أتربتها
وتحولت الأعوام إلى ذرات غبار تناثرت في فضائها
إن الزمن بخطوة واحدة يذل من كبريائك
يخمد عزة نفسك، ويطفىء جذوة اشتعالك
يقبر في جوفه العميق الحوادث
ويرمس في لحده المخيف الأيام
ولكن الإنسان، الإنسان وحده
المجنون الأكبر في هذا الكون!
إنه ليظن أن القبور لتسعد بسكانها
ويأمل أن يعيش الحياة ثانية فيها
فيظفر في طياتها بالحياة إثر الحياة

ويحلم بالأبدية والخلود
وهو كريشة في مهب زوبعة العدم الهائجة
ليجبكم غيري، يا عقلاء الأرض، يا مدعي الفلسفة
اتركوا لي خطئي. فأنا أهوى فلذا آمل
فإذا كان الخلود خطيئة لا توجد مرسومة
إلا في بعض العقول دون أخرى
فكم هذه الخطيئة عزيزة لديّ!
اتركوني أيها العقلاء أنعم بجانب ضلتي
إني أحب أن أتمنى وأن أعلل الأشياء
إن عقلنا الضعيف المضطرب يتحير
بلى إن عقلنا ليمسك عن الكلام أمام حججكم، ولكن الإدراك يجيبكم.
أما أنا، عندما أرى الكواكب تسبح في السموات العلى
والنجوم تنحرف عن طرقها المدبرة وسبلها المقررة
وأشهد النجم في حقول الأثير اللانهائية يناطح النجم
والكوكب يركض إثر الكوكب، فأنصت لصراخ الأرض
وأسكن لسماع صرخاتها المتوالية تتنهد
وقد شق جوفها، ومادت كرتها هائمة تضطرب
بعيدة عن السموات وشموسها، تبكي الإنسان المحطم
ابنها العاني، المسرع في طريق الموت الذي هام في حقول الأبدية المظلمة
عندها أكون الشاهد الأخير، والحاضر الفرد
وقد احتاطتني المدلهمات، وأمسك بيدي الموت إلى جوف الظلمات
وبالرغم من ضعفي سأنهض واثبًا
لا خوف يدب إلى قلبي، ولا ذعر يمسك على فؤادي
أفكر فيك، أرقب بفارغ الصبر عودة الفجر الأبدي
ليضيء العالم المحطم، حيث أرقب لقاءك وأرجو زورتك

كنت تذكرين دائمًا رحلتنا الهنيئة وسفرتنا الرغدة
يوم نشأ غرامنا الخالد وبدأ حبنا المقيم
فكنا ننعم على ذوائب الصخور القديمة التي شهدت مجد الأولين حينًا
وحينًا على ضفاف البحيرة الساكنة
نرقب أمواجها الهادئة، ونستمع إلى أصوات مياهها العذبة
فتحمل نفوسنا على جناح النعيم حيث نسلو العالم الصاخب.
كنت أخوض معك الظلماء التي أنتجها التفاف الأشجار
وأسير جنبك تحت الظلال الوارفة والأفياء المنتشرة
نهبط الربى لنصعد الجبال
لحظة سعيدة مرت أصغينا خلالها لموسيقى النجوم الغامضة
وأصخنا بسمعنا إلى غناء الكواكب الجميل
لا صخب يتخلله، ولا ضوضاء تمسك ألحانه
كم دهشنا لهذه الصورة الجميلة التي تغطي العالم
عدنا أدراجنا إلى المعبد
خشعنا أمام الضوء الخافت الذي يرسل أشعة متضائلة
تبعث إلى القلب الرهبة، وإلى الأجسام الرعشة
سكرى من جمال الوجود
كنت ترددين النظر بين الأرض والسماء، ثم تهتفين:
«إله الغيب، هذه الطبيعة مأواك
عندما نتأمل بنظراتنا صنع يديك
الروح تراك متمثلاً في كل صورة من إبداعك
فهذه الدنيا صورة كمالك؛ النهار نظرتك، والجمال ابتسامتك
في كل مكان القلب يعبدك
والنفس ترجو أن تدب فيها الأمل، وتنفخ طياتها روح العمل
«أيها الخالد اللانهائي القدير الجليل!

إن قلمي ليعجز عن وصف اسمك وكتابة حسناتك
والروح التي حبوتها بنفختك تمجد عظمتك
حتى تخمد فيها الحركة
وتسكن بين جنباتها الخفقات
«أيها الإله القدير! إن الروح لتخضع لحكمتك العليا وأنشودتك المثلى
تريد أن تطفو نحو علاك، وتثب إلى سمائك
إنها لتشعر أن الحب هو ختام حياتها
فهي تحترق لمعرفتك وتلتهب لمرآك».
كذلك كنت تقولين وبهذه النفثات كنت تناجين
وقلبانا يجمعان التنهدات، يمزجان الأنات، يصعدان الزفرات
يرسلانها صوب هذا الكائن العظيم الذي يدل عليه هوانا،
ويشهد لعظمته غرامنا
نخشع بصلاتنا أمامه، نحمل طيات قلوبنا محبته واحترامه
يرسل إليه الفجر تخشعاتنا وتضرعاتنا،
ويرفع نحوه المساء تذللاتنا وابتهالاتنا
وعيوننا السكرى بجمال ما صنعت يداه، تتأمل بين الفينة والفينة الأرض
حيث نفينا، والسماء مسكنه.
أواه! في هذه اللحظة والروح على وشك الفرار
تريد البعاد، تود تحطيم السجن.
هو ذا الإله يطل علينا من عليا سمائه
يستجيب دعانا، ينظر إلى شكوانا نظرة عطف تنقذ كلينا.
إن روحينا تريدان أن ترجعا إلى حيث وجدتا النور.
واستشفتا الضياء
تريدان أن تقطعا معًا خضم هذا العالم إلى النهاية المحتمة
يدًا بيد، ووجهًا إزاء وجه

حتى تصلا على جناح الحب إلى النهاية
فهي تصعد كضوء النهار إلى أن تنتهي إلى حيث الإله الخالد
وترتمي تحت أقدامه متعانقة باكية.
هذه الأفكار: أتراها تغشنا وتخدعنا؟
أواه! أللعدم خلقت أرواحنا؟
أللفناء كانت حياتنا؟
أتشترك الروح في مصير الجسد إلى العدم، ويلتهمها جوف القبر الغامض
كما تلتهم الضواري اللحم
ويضيع بين ترابها العظم؟
أتعود إلى التراب الذي منه نشأت
أم تطير في الأجواء ولا تستحيل إلى هباء؟
أم تراها تتبدد في الفضاء
كما تتبدد صرخات صوت قذفته عروس حسناء؟
بعد حسرة ضائعة، وزفرة راجعة، وتوديعة باكية
أترى يفنى المحب، ويطوي الدهر في صفحات كتابه غرامنا؟
أواه؟! إن هذا السر العظيم لا يعرف كنهه إلا أنتِ.
ألا انظري موت من أحبك «ألفير» أجيبي ردي عليّ!

****

الخلـــود(*)

لقد آلت شمس أيامنا منذ فجرها إلى الاصفرار!
فهي لا تكاد ترسل نحو جباهنا الكليلة
سوى بضعة أشعة مرتجفة تقاوم الظلمة!
ولكن الظلمة تنمو، والضياء يتلاشى، وينمحي كل شيء ويزول!

✲✲✲✲✲

ألا فليرتعد سواي أمام هذا المشهد! ولتخنه قواه!
وليبتعد مرتجفًا عن شفا الهوة!
وليعجز عن الاستماع بعيدًا دون أن يجزع
إلى أنشودة الموت البائسة التي يتهيأ لالتقاطها، أو إلى الزفرات
المختنقة تصعدها حبيبة أو شقيق
فتعلق حول أطراف سريرها الكئيب!
أو إلى الناقوس المدوي،
تنشر دقاته المضطربة بين الملأ أن فلانًا قد قضى!
سلامًا أيها الموت! أيها المنقذ السماوي!
إنك لا تظهر لي في هذا الشكل الرهيب
الذي ألبسك إياه الوهم والرعب زمنًا طويلاً!
إن ذراعك لا تحمل ذلك الخنجر الهدام!

(*) ترجمة السيد أحمد عيتاني ونشرت في الرسالة، العدد (٢٣٩)، من السنة السادسة (٣١ يناير ١٩٣٨)، ص(١٨٠) وما بعدها، يتصدرها: «أحب لامارتين «ألفير» حبًا ملك عليه حواسه ومشاعره، وكاد يقرب من العبادة إلا أن القدر أبى أن يمتعه بهذا الحب طويلاً، فبينما هو يقضي إلى جانب محبوبته ألذ ساعات العمر وأعذب أوقات الحياة، إذا بالنبأ يفاجئه بأنها مريضة ومشرفة على الموت، فينال هذا النبأ منه وينظم آلامه وشجونه في تلك القصيدة التي ينظر فيها إلى الموت نظرة المنقذ الذي ينقل الإنسان من آلام الحياة الفانية إلى سعادة الحياة الأبدية».

إن جبينك ليس مرعبًا! وإن عينك ليست غادرة!
إن بك لَطَيْفًا يسوقك لتخفيف الآلام!
إنك لا تهلك ! إنك تنقذ!
وإن يدك لرسول سماوي يحمل شعلة إلهية!

۞۞۞۞

عندما تنطبق عيني المتعبة على ضوء النهار
ستأتي، وتغرق جفونها بنور أشد نقاوة منه!
ويفتح أمامي الأمل، وأنا أحلم في القبر على مقربة منك
أبواب عالم أبهى من هذا العالم!

۞۞۞۞

تعال إذًا وأنقذني من قيودي الجسدية!
تعال وافتح لي سجني! تعال وأعرني جناحيك!
ما يلهيك؟! اظهر! ولأقذف بنفسي أخيرًا
نحو هذا الكائن المجهول: مبدئي وغايتي!

۞۞۞۞

من فصلني عنه؟! من أنا؟! وما يجب أن أكون؟!
إني أقضي ولا أفهم معنى الحياة!
أيتها الروح! أيها الضيف المجهول! يا من أسائلك عبثًا!
في أية سماء كنت تقطنين قبل أن تكوني فـيَّ؟!
أية قوة قذفت بك إلى هذه الكرة الأرضية؟!
وأية يد ألقت بك في سجنك الصلصالي؟!
أيّ روابط خفية، وأيّ عقد مدهشة
جعلتك تقيمين في الجسد، وجعلت الجسد مالكًا لك
أيّ يوم تنفصلين فيه عن المادة؟
وإلى أيّ صرح جديد تغادرين الأرض؟

أتنسين عندها كل شيء؟!
أتعودين بعد القبر إلى الحياة؟!
أتبدأين حياة ثانية؟
أم ستعملين، وقد تجردت إلى الأبد من قيودك الفانية
على التلذذ بحقوقك الخالدة
في جوار الله مبدؤك ومعادك!
أي نعم. ذاك ما أتمناه يا نصيفة حياتي!
ذاك ما جعل نفسي مطمئنة
وقادرة على النظر، دون ما ذعر إلى قسمات وجهك الوسيمة
تذوي عليها ألوان ربيعك الساطعة!
ذاك ما جعلك ترينني أبتسم
وأنا أموت شابّاً فريسة تلك الطعنة التي أصبت بها!
ذاك ما جعل دموع الفرح تلمع في عيني
عند رؤيتك الأخيرة، في وداعنا الأخير!

✲✲✲✲✲

«أمل باطل!» هكذا سيقول أتباع أبيقور!
إنهم سيقولون: «يا فاقد الشعور، يا من يخدعك غرورك الكثير!
انظر حواليك: فكل شيء يبدأ ويتلاشى!
كل شيء يسير إلى نهاية! وكل شيء يولد ليموت!
إنك ترى الزهرة تذوي في تلك الحقول الصفراء!
والأرزة الشامخة تسقط في الغابة تحت أعباء السنين لتفنى خلال الأعشاب!
إنك ترى البحار تجف في أحواضها الناضبة!
والسماوات نفسها قد أخذت بالاضمحلال!
حتى الشمس، ذلك الكوكب الذي كتم الزمن مولده تسير مثلنا نحو الفناء!
ولسوف يبحث البشر عنها يومًا فلا يجدونها، فيتيهون في الفضاء الفارغ!

إنك ترى الدهور حواليك، في الطبيعة كلها!
تتراكم غبارًا على غبار!
وإنك لترى الزمن يخطو خطوةً واحدةً فيطويك مع كبريائك!
وينقلب كفنًا لجميع ما أنتج!
والإنسان ! والإنسان وحده! يا للجنون العظيم!
يظن أن سيعود ثانية إلى الحياة في أعماق لحده!
ويحلم بالخلود، بعد أن حطمه الزمن.
وحملته العاصفة إلى العدم!

✡✡✡✡✡

ألا فليجبكم سواي يا فلاسفة الدنيا!
ودعوني ووهمي! فالأمل يجب عليَّ وهو حبيب إليَّ!
إن عقلنا ليتعثر ويختلط عليه الأمر
نعم إن العقل ليسكت، ولكن القلب ليجيب!

✡✡✡✡✡

أما أنا، فحينما أرى الكواكب
وقد تاهت عن طريقها السوي في السهول السماوية
يصطدم بعضها ببعض في حقول الأثير
وتنقلب دون ما غاية في السماوات المذعورة؛
حينما أسمع الأرض تئز وتتحطم!
حينما أرى كرتها الشاردة المنعزلة
تسبح بعيدة عن الشموس، باكية إنسانها الهالك!
لتضل في حقول الليل الأبدي!
حينما أكون آخر شاهد لتلك المناظر الرهيبة؛
حينما أظل محاطًا بالموت والظلمة
وبالرغم من وحدتي وجزعي

سآمل فيك أيها الكائن الحق اللطيف
وسأنتظرك أيضًا، وأنا في العوالم البالية
مؤمنًا بعودة الفجر الأبدي!

✵✵✵✵✵

ما أكثر ما غمرتني وإياك تلك الظلمة
ونحن بعيدان عن العالم، يحدونا الأمل
تارة على قمم الصخور الهرمة!
وأخرى على ضفاف البحيرة الكئيبة القاحلة!
أثناء مقامنا السعيد... حيث بدأ حبنا الخالد
لدى النظرة الأولى كما تذكرين!

✵✵✵✵✵

لقد كانت الظلال، وهي تنحدر من وراء الجبال
بقطعها الطويلة، تحجبها عن أبصارنا!
فلا تلبث كواكب الليل الغريبة
بعد برهة من الزمن
أن تزحف دون ما جلبة أو أبهة
وترد على أبصارنا ما حجب عنها
وتسبغ على الأرض ثوبًا من الأنوار الضئيلة
كما يسبغ المصباح نوره المقدس
على المعابد المقدسة التي أضاءها النهار بنوره
فينير منها الهياكل بعد ما تأخذ أشعة المساء تدريجًا بالاصفرار!

✵✵✵✵✵

هنا كنت تفتشين، وكنت تنتقلين ببصري
من السماء إلى الأرض، ومن الأرض نحو السماء
وكنت تقولين: «إيه يا إلهي الخفي»

إن الطبيعة هيكل لك
إن العقل ليراك في كل بقعة تتأملها العين منها
إن هذا العالم مرآة لكمالك الذي يحاول العقل إدراكه!
وصورة له وانعكاس عنه!
إن النهار نظرتك، والجمال بسمتك!
إن القلب ليعبدك في كل ناحية!
وإن النفس لتحيا بك!
أيها الخالد الأبدي! أيها القدير اللطيف!
إن جميع تلك النعوت ليست كافية لتصوير عظمتك!
إن العقل ليعنو أمام جوهرك العظيم!
فيمجد عظمتك حتى لدى سكوته!

✡✡✡✡✡

إلا أنه وهو ذاك العقل المنهزم يا إلهي
حينما يشعر أن الحب سر وجوده
يندفع بذاك القانون الجليل نحوك
متشوقًا إلى حبك ومتحرقًا إلى معرفتك

✡✡✡✡✡

لقد كنت تقولين، وقد وحد قلبانا زفراتهما المتصاعدة
نحو هذا الكائن المجهول الذي نمت عليه آمالنا!
كنت تقولين ونحن جاثون أمامه وقد أجبناه في خلقه
وحمل إليه الفجر والعشاء تمجيدنا إياه!
كنت تقولين وقد أخذت عينانا المنتشيتان
تارة تتأملان الأرض: منفانا نحن!
وأخرى تتأملان السماء مقامه هو! :
«آه لو أن الله يستجيب دعواتنا في هذه الساعة

التي تحاول بها نفسنا الغرارة خلاصها وتحطيم قيدها وإسارها!
فيرسل علينا من علياء سمائه طعنة تحررنا كلينا!
إذًا لرجعت روحانا نحو منبعهما دفعةً واحدةً!
ولصعدتا على جناح الحب في ثنايا اللانهائية
كأنهما خيط من نور!
حتى تصلا، وقد اجتازتا في سيرها العوالم معًا.
أمام الله، وقد ذهلتا عن ذاتيهما
فتعيشان إلى الأبد ممتزجتين فيه!

☼☼☼☼

أترينا مخدوعين بهذه الآمال؟!
أصائران نحن إلى العدم؟!
أمقدرٌ على أرواحنا الفناء؟!
أتقاسم الروح الجسد مصيره بعد خلاصها منه!
فتفنى معه في ظلمات القبر
وتتحول إلى غبار؟! أو تتلاشى كما يتلاشى الصوت في الفضاء؟!
أو لا يبقى، بعد الفراق الفادح واللوعة الضائعة
جزء يحبك من ذاك الذي كان يحبك؟!
آه يا ألفير! لا تسائلي سوى نفسك عن ذلك السر العظيم!
وانظري إلى من أحبك وهو يموت
ثم أجيبي![*]

****

(*) ختمت باسم المترجم الذي وصف بأنه «عضو بعثة أساتذة جمعية المقاصد في مصر».

الخلــود(*)

إن الاصفرار يغشى شمس حياتنا منذ فجرها
وعلى جباهنا المتأوهة
تعكس بعض الأشعة الضئيلة
المرتجفة والتي تصارع الظلام،
الظل ينمو والنهار يموت
وكل شيء يمَّحي ويتوارى

✡✡✡✡

وَلْيَرْتَعِشْ شقيق أو حبيب ويشفق لهذا المنظر
وَلْيَرْتَعِدِ مرتجفًا عن شفير الهاوية،
وليعجز عن سماع أغاني الموتى،
وحتى عن بعيد، وهي تهم أن تدوي دويَّها
والتأوهات المخنوقة التي يصعدها
ترود حول سريره الجنائزي
وَلْيَخْشَ قرع النحاس المعول
والذي يؤذن صداه الضائع
للأحياء الهالكين بأنَّ حيّاً ما
زال ولم يعد موجودًا

✡✡✡✡

إنى أحييك، أيها الموت

(*) ترجمة إيليا حاوي، ضمن: «الرومنسية في الشعر العربي والغربي» ص٩٨ وما بعدها.

المحرر السماويّ
فأنت لا تتراءى لي بذلك الوجه الكريه
والذي خلعه عليك زمنًا طويلاً
الرعب أو الضلال
فساعدك لا يحمل سيفًا مهلكًا
وجبهتك ليست قاسية،
وعينك ليست مشؤومة،
فإن رَبّاً كريمًا يقودك
لتداوي الآلام
أنت لا تبيد بل إنك تحرر
ويدك هي رسولة علوية تحمل
مشعلاً إلاهيًا،
والأمل الذي يحلم بقربك
على رمس ويتوكأ على الإيمان
يفتح لي آفاق عالم أجمل
تعال إذن، تعال حرّرني
من سلاسل جسدي، تعال افتح سجني،
تعال أعرني جناحيك.
لماذا تتأخر اظهر
ولأرتحل أخيرًا إلى ذلك الكائن
المجهول
وهو بدايتي ونهايتي
ومن ذا ترى فصلني عنه
ومن عسايَ أكون أو ما ينبغي لي
أن أغدو؟

وها إني أموت لا أعلم
ما معنى الولادة
أنت أيها الروح الذي أخاطبه
عبثًا، أنت أيها الضيف المجهول
أين كنت وفي أيّ سماء قبل أن تحل بي
وتحركني؟
وأية قوة رمتك على هذه الكرة
السريعة العطب؟
وأية يد أسرتك في سجنك الترابيّ؟
وبأية عقدة مدهشة يتعلق بك الجسد
كما تتعلق أنت به؟
وأيّ نهار يفصل الروح عن الجسد؟
وإلى أيّ قصر جديد تغادر الحياة؟
وهل أنك نسيت كل أمر فيما وراء القبر؟
وهل أنك سوف تبعث في نسيان جديد؟
وهل ستباشر من جديد حياة أخرى؟

✡✡✡✡

أم أنك ستفرح بحقوقك الأبدية في
أحضان الله الذي هو مبعثك ومآلك
بعد أن تتحرَّر من قيودك الإنسانية؟...
أمل عبثيٌّ سيصرخ الأبيقوريون
فليرد عليكم سواي يا حكماء الأرض
إن عقلنا يضطرب ويلتبس
بلى العقل يصمت فتجيب الغريزة.

✱✱✱✱

الخلـــود(*)

إن شمس أيامنا شحبت منذ فجرها
وعلى جباهنا الراهنة تكاد ترسل بعد
بعض الأشعة المضطربة التي تقارع الليل
ويعتقد الظل أن النهار قد مات،
وأن كل شيء قد انمحى، وكل شيء قد انهزم
وإن شيئًا آخر في هذا المشهد يرتعد ويخشع
ويرجع القهقرى، ويزلزل حواشي الهوة
ولا يستطيع أن يسمع من بعيد بدون ارتعاش
النغم الحزين للأموات المشرفين على الاختطاف القريب
والتنهدات المكبوتة لمحبة أو شقيق
المخيمة على حواشي سريره الجنائزي
أو الصدى الحسير الحائر رنينه
المعلن للفناء، أن تعسًا لم يعد شيئًا مذكورًا
أحييك، أيها الميت! المتحرر العلوي
إنك لن تتراءى لي قط تحت هذا المشهد المشؤوم
الذي أعارك طويلاً الهلع أو الخطيئة
إن ذراعك لم تعد مجهزة بسيف مدمر
إن جبهتك لم تعد قاسية. وعينك لم تعد غادرة
لإسعاف الآلام سيتولاك إله واحد...

(*) ترجمة محمد أسعد ولاية في «مختارات...» ص٢٤ وما بعدها، يتصدرها «إن هذا التخيل في مصائر الإنسان كان قد وجهه لامرتين في أكتوبر عام ١٨١٧ إلى حبيبته إلفير المتوفاة».

إنك لن تفنى، إنك تسلم يدك
إلى ملك سماويّ يحمل مشعلاً إلهيًا
عندما ينطفىء سراج عيني المتعبة
ستأتي ذات يوم أكثر صفاء تغمر جفني
والأمل قريبًا منك سيتراءى فوق قبر
مستندًا إلى الإيمان، ويفتح لي عالمًا أكثر جمالاً

✡✡✡✡✡

تعال إذن، تعال وحلّ قيودي الجسدية!
تعال، افتح سجني، تعال وأعرني أجنحتك!
لماذا تبطىء؟ اظهر فإنني اتجهت أخيرًا
حيال هذا المصير المجهول، مبدئي ومنتهاي!
من ذا الذي أطلق سراحي؟ من أنا؟ وماذا يجب أن أكون؟
إنني أموت، ولا أعلم لماذا خلقت
وأنت، عبثًا أسأل روحًا في علياء مجهولة
قبل أن تشعريني أيّ سماء تسكنين
أية قدرة ألقت بك فوق هذا الفلك السريع التحطم؟
أية يد حبستك في سجنك الصلصالي؟
بأيّ طلسم عجيب، بأية أسرار متصلة؟
هل يتمسك بك الجسد كما تتمسكين أنت بالجسد؟
ترى في أيّ يوم ستنفصل الروح عن المادة؟
إلى أي مقام جديد قد غادرت الأرض؟
هل نسيت كل شيء؟ من وراء القبر.
هل ستخلقين بعد في مجهول جديد؟
هل ستبدئين حياة مماثلة؟
أم في كنف الإله منبعك وموطنك؟

تحرري أبدًا من قيودك البائدة
هل ستتمتعين أخيرًا بحقوقك الأزلية؟
نعم، هذا أملي، واهًا يا نصف حياتي!
بذلك ما لبثت روحي أن تطهرت
وتمكنت بدون وجل أن ترى فوق سهامك الراقية
تلاشي الألوان اللامعة في الربيع
وبذلك نفذ السهم الذي يمزقني
صغيرة بعد، عند موتك، لقيتني باسمة
وإن عبرات السرور عند وداعنا الأخير
عند نظرتك الأخيرة ستشع في عيني
أمل باطل! «سيصرخ فريق الأبيقوريين الشهوانيين»
وهو العالم الذي يشرح الطبيعة بيده
في زاوية من عقل خسر سمعته مؤخرًا
والذي يرى التفكير في المادة. وينسى الروح
سيقولون، غير معقول أن كثرة الخيلاء توقع في الزلل
تلفتي حولك، كل شيء يبتدي، وكل شيء يزول
كلٌّ يسير إلى أجل، وكل ولد ليموت
في هذه العاجلة المصغرة ترين الزهر يذبل
إنك ترين في هذه الغابات، الأرز في الجبهة بهيجًا
وتحت ضغط أعوامه يسقط ويزحف تحت العشب
وسترين البحار النازفة في مخادعها اليابسة
وهذا الكوكب الذي أخفى الزمن مولده
الشمس، تسير مثلنا إلى زوالها
سنبحث عنها ذات يوم ولن نراها بعد!
إنك ترين حولك في الخليقة عامة

الأجيال تكدس ترابًا فوق تراب
والزمن بخطوة واحدة يقلب كبرياءك
ومن جميع ما يحدث يأتي التابوت
الإنسان، والإنسان وحده، واهًا يعظم الحماقة!
وفي صميم قبره يعتقد أنه سيجد الحياة
وفي الزوبعة أخذ إلى الفناء
وصرعه الدهر وهو يحلم بالخلود!
يجيبك آخر، أيها الخاضع للأرض
تجاوز عن زلتي، إنني أحب، يجب أن آمل،
إن عقلنا الضعيف يضطرب ويفقد وعيه
نعم، العقل يصمت ولكن الغريزة تجيبك
أما أنا، عندما أذهب إلى المستوى السماويّ
ستبتعد الكواكب عن طرقها المعينة
في ميادين الهواء الصافي التي يستبد أحدها بالآخر
نطوف صدفة بالسماوات الفزعة
وعندما أسمع الزفير وتتحطم الأرض،
وعندما أرى كرتها غير مستقرة ومنعزلة
خائضة بعيدًا عن الشموس، باكية الإنسان المحطم
الضائع في ميادين الليل الأبدي
وعندما يصبح آخر شاهد لهذه المسارح الجنائزية
محوطًا بالفضاء وبالموت وبالدياجير
سأكون واقفًا وحيدًا، وحيدًا رغم ذعري
مصير لا مفر منه وحسن، سيكون أملي فيك
وأنا واثق من عودة الفجر الأبدي
على العالم المحطم سأنتظرك بعد!

✡✡✡✡

أحيانًا تذكرين، في ذلك المقام السعيد[1]
حيث اختلسنا، نظرة لحبنا الخالد
قريبًا من مشارف هذه الصخور التاريخية
قريبًا من حواشي صحارى البحيرات الساهمة
وفوق جناح الرغبة، بعيدًا عن العالم الذاهب
كنت أتعمق معك في هذه المعميات
الظلال ذوات الثنيات الطويلة النازلة من الجبال
تلك لحظة تختفي فيها عن أعيننا الرياض
ولكن تتقدم سريعًا بدون ضجة ولا جلبة
الجوقة الخفية لنجوم الليل
وتعيد لنا الأشياء مخفية عن نظرنا
ومن هذا الضياء المسترخي يتشح الفضاء
وكذلك في معابدنا المقدسة يضيئها النهار
عندما تشحب أشعة المساء تدريجيًا
ينشر المصباح ضياءه الناسك
في يوم أكثر تجمعًا يملؤه التقديس
وفي نشوتك إذن تجتذبين ناظريَّ
وسماوات على الأرض وأرض في السماوات
أيها الإله المحجوب، أكنت تقول إن الطبيعة معبدك!
تراك الروح في كل مكان عندما تتبصر أعيننا
ومن بدائعك التي تحاول العين أن تضمرها
هذا العالم هو المرجع، والصورة، والمرآة
النهار نظرتك، والجمال بسمتك
كل قلب يعبدك، والروح تلهج بك

(١) المقام السعيد هو جبال سافوا لو بان وحولها (المترجم).

أزلي لا نهائي، قادر على كل شيء، وكل شيء حسن
هذه الخصائص الواسعة لا تفي باسمك
والروح التي أصابها الضنى تحت جوهرك السامي
تسبح بعظمتك حتى في صمتها
وفي غضون ذلك أيها الإله! بناموسها السامي
هذه الروح الصريعة ما زالت متجهة نحوك
وهي تشعر أن الحب هو نهاية وجودها،
عدم الصبر على الحب يلهب لنعرفك

☆☆☆☆

إنك قلت، وقلبانا الموحدة حسراتهما
حيال هذا المصير المجهول ما الذي يحقق رغباتنا؟
ركع المحب أمامه في مبتدعاته
والفجر والمساء يقدمان له خضوعنا
وأعيننا النشوى المتبصرة تارة بعد تارة
الأرض منفانا والسماء مستقرنا.

☆☆☆☆

آه لو في هذه اللحظات حيث الروح تحاول الشرود
يشفها الألم وتريد تحطيم الصدر الذي يأسرها
هذا الإله من علياء السماء أجاب رغباتنا
وبسهم محرر أصاب كلينا
أرواحنا بقفزة واحدة يصعد بها إلى منبعها
سيثب الخلق معًا في طريقهم
حيال اللانهاية، على جناح الحب.

****

الــوادي (*)(1)

إن قلبي المكلوم المتقطع حبل رجائه حتى من الأمل
لن يزعج الأقدار بعد الآن بابتهالاته كما كان يزعجها من قبل.
ولكن أيها الوادي
يا مأواي في أيام طفولتي
افسح لي مجالاً – ولو ليوم واحد –
فأعيش في ربوعك في انتظار المنون

✡✡✡✡✡

ها هي ذي الطريق الضيقة المؤدية إلى ذلك الوادي المظلم:
هنا، في أحضان هذه الروابي
تقوم أشجار تلك الغابات الكثيفة
فترسل ظلها على وجهي الشاحب
وتحوطني بسكون مسكر

✡✡✡✡✡

وهناك جدولان يجريان تحت «جسور»(2) من الأعشاب المخضوضرة
فيرسمان في انسيابهما تعاريج الوادي ومنحدراته
وتراهما بين الفينة والفينة

(*) ترجمة محمد كزما (بيروت)، ونشرت في الرسالة بالعدد الخامس من السنة الأولى (١٥ مارس ١٩٣٣). وراجع التعليق على ترجمة أسعد ولاية.

(١) نظم لامرتين هذه القطعة الشعرية الممتازة في أواخر عام ١٨١٩، بعد أن أقام في الوادي الذي يعنيه férouillet سنة كاملة (المترجم).

(٢) أصل هذه الكلمة Ponts وقد احتفظنا بمعناها الصريح (المترجم).

يمزجان تموجاتهما الفضية بألحان خريرهما العذبة
ثم يتلاشيان قريبًا من المنبع، بعيدًا عن أعين الناس.

✡✡✡✡✡

وأيامي في انسيابها أشبه بهذين الجدولين!
فهي تمضي وتتلاشى دون أن يشعر بها الناس
ودون أن تحدث ذلك الخرير العذب!
أما نفسي الكئيبة الملتاعة
فهيهات أن تعنى بحياة يوم جميل من أيام حياتي

✡✡✡✡✡

إن خمائل الوادي الفينانة. بظلها المخيم
دفعتني لقضاء النهار(١) كله على ضفاف جداولها
فنفسي الحساسة تغفو على أنغام خرير المياه
كما يغفو الطفل في مهده على صوت المناغاة
هناك تحوطني الطبيعة بأسوار من العشب الأخضر
وبأفق محدود، لكنه فسيح لناظري
إنني أحب أن أثبت قدمي وأن أبتعد عن الناس لأسمع خرير المياه
ولأتمتع برؤية السماء

✡✡✡✡✡

لقد رأيت في حياتى أمورًا كثيرة
وشعرت بإحساسات جمة
وملأت أيامي عشقًا
والآن جئت أستوحي الطبيعة في هدوئها الشامل
أيتها الأماكن البهيجة الجميلة !

---

(١) هنا يتذكر الشاعر يومًا مشئومًا كاد يموت فيه غرقًا في بحيرة صغيرة لولا نشاط إيمون فيربو أحد أصحابه (المترجم).

كوني لي تلك الضفاف التي ينسى الإنسان بقربها كل شيء
فقد أصبح سر سعادتي في النسيان
هنا يطمئن قلبي : هنا ترتاح نفسي :
هنا تلفظ ضوضاء العالم البعيد أنفاسها الأخيرة
كما يلفظ الصوت البعيد أنفاسه حين تبعد به الشقة
قبل أن يصل مع النسيم إلى الأذن الحائرة.

✡✡✡✡✡

من هنا، ومن خلال هذه الغيوم الصافية
أرى ماضي حياتي يختفي في ظلام دامس
تاركًا في نفسي ذكريات حية لحبي
كما تترك اليقظة في نفس المستيقظ صور خيالات جميلة
لحلم لذيذ قد استفاق منه.

✡✡✡✡✡

يا نفسي ! خذي حظك من الراحة في هذا المنزل الأخير
كما يأخذ المسافر الطافح قلبه بالآمال
حظه من الراحة، قبل أن يدخل أبواب المدينة
يستنشق هنيهة نسيم الماء المعطر.
ولننفض نعالنا كما يفعل هذا المسافر
لأننا لن نمر ثانية في هذه الطريق
التي اجتزناها مملوءة بالغبار
ولنتذوق مثله أيضًا، في آخر مرحلة من طريقنا
هذا الهدوء الذي يبشرنا بضجعتنا الأبدية.

✡✡✡✡✡

أيها الإنسان ! إن أيامك المعدودة
التي تشبه في حلكتها وقصرها أيام الخريف

تنحدر بك كما ينحدر الظل على جوانب الهضاب
فالصداقة تخونك، والرحمة تعرض عنك
إلى أن تتركك في طريق القبر وحيدًا.

✡✡✡✡

ولكن الطبيعة هنا تدعوك إليها
لتبثك أشواقها، فارتم في أحضانها
عندما يقلب لك كل شيء ظهر المجن
عندما يخونك كل شيء ويعرض عنك
ترى الطبيعة على حالها المعهودة
فالشمس نفسها تشرق طيلة أيام حياتك.
إن الطبيعة لم تزل كما كانت عليه بالأمس
ترشدنا تارة بنور حقيقتها
وتضللنا أخرى، فلا تأسف أيها الإنسان
لكل ما تضيعه من متاع الحياة الدنيا
وتعال نعبد ذلك الصدى وألحان الموسيقى العلوية
كما كان يتعبدهما «فيثاغورس»[(١)] من قبلك.

✡✡✡✡

دع الطرف يناجي الغزالة في سمائها نهارًا
والأشباح في محرابها ليلاً
واسبح مع الغيوم على بساط الريح
واخترق غابات الوادي الظليلة
مع أشعة ذلك الكوكب الخفي

✡✡✡✡

(١) هو عالم وفيلسوف يوناني، عاش في القرن السادس قبل الميلاد، تعلق بالطبيعة، وهو مدين لها بكثير من بحوثه العلمية، كسرعة الصوت في الهواء، وأسباب حدوث الصوت ... إلخ.

إن الله خصك أيها الإنسان بالعقل والفطنة
لكي يتحقق بهما وجوده
فاستجله في صحيفة الطبيعة
فإن في سكونها وهدوئها صوتًا يهتف باسمه
من منا لم يسمع هذا الصوت يدوِّي في أعماق قلبه ؟

****

الـــوادي (*)

تعب قلبي من كل شيء حتى من الأمل،
فلن يثقل بعد اليوم بأمانيه على القدر
فأعرني يا وادي صباي وأحلامي
ملجأ يوم انتظر فيه موافاة حمامي

✡✡✡✡✡

ذلك هو الشعب يضرب في حشايا الوادي،
والغابات الكثيفة تقوم على سفوح الربى،
وأدواحها الحانية تلقي الظلال على جبيني
فتملأ شعاب نفسي بالسكون والغبطة

✡✡✡✡✡

وهناك جدولان اختفيا تحت أعراش الخضرة،
يرسمان في انسيابهما منعطفات الوادي،
ثم يمتزج منهما الموج بالموج والخرير بالخرير،
ويفنيان وهما من المنبع على مدى قصير

✡✡✡✡✡

كذلك جرى نبع أيامي جريان هذين الجدولين،
ثم ذهب من غير هدير ولا سمة ولا رجعة !

(*) ترجمة أحمد حسن الزيات في الرسالة، العدد (٨٣) من السنة الثالثة (٤ فبراير ١٩٣٥) ص (١٩٦) وما بعدها تم نشرها في: في الأدب الفرنسي (ضوء القمر ص (١٩٦) وما بعدها) ويلاحظ أن هذه الترجمة تحمل عنوان الوادي بينما ترجمها محمد أسعد ولاية الوادي الصغير، استنادًا إلى أن العنوان الفرنسي للقصيدة : .Le Vallon

ولكن ماءهما كان صافيًا شديد الصفاء،
أما نفسي فلم يتراء في كدرها صفو ولا هناء !

✡✡✡✡✡

إن طراءة الجدولين وبرودة الظلال ،
تعقلانني طيلة النهار على ضفافهما الخصيبة،
أهدهد نفسي على خرير مائهما السلسال،
كما يهدهد الطفل على المناغاة الرتيبة

✡✡✡✡✡

آه! حبذا المقام هنا بعيدًا عن الناس وحيدًا مع الطبيعة!
يحيط بي سور أخضر من رياض الأرض،
ويقوم حواليَّ أفق محدود فيه مجال للبصر،
فلا أسمع غير همس الموج ولا أبصر غير وجه السماء

✡✡✡✡✡

لقد رأيت كثيرًا وأحسست كثيرًا وأحببت كثيرًا
ثم جئت هنا حيّاً لأبحث عن هدوء (ليتيه)[١] !
فيا أيها الوادي الجميل !.. كن لي ذلك
النهر الذي يُذهب بالنسيان هموم القلب،
ففي النسيان وحده منذ اليوم سعادتي ونعيمي

✡✡✡✡✡

إن قلبي في رخاء ونفسي في سكون،
إن ضوضاء العالم لتفنى قبل أن تصل إليّ،
كالنغم البعيد يخفت على طول المدى،

(١) L'éthé فيما تزعم الأساطير الوثنية نهر من أنهار الأنفير Les enfers وهو مقام الأرواح بعد الموت، تشرب منه هذه الأرواح فتنسى ماضيها، وليتيه معناها النسيان (المترجم).

ثم لا يقع منه في الآذان إلا صدى

✡✡✡✡✡

من هذا المقام ومن خلال ذاك الغمام
أرى الحياة حولي تغوص في غيابة الماضي
فلم يبق ماثلاً غير الحب يقوى ويتجدد،
كالصورة الكبيرة تبقى على اليقظة من حلم تبدد

✡✡✡✡✡

استروحي يا نفس في هذا الملجأ الأخير،
كالمسافر اللاغب يجلس على باب المدينة ،
وقلبه زاخر بالأمل والطمأنينة،
فيستثنى قبل أن يدخل نسيم المساء العبق

✡✡✡✡✡

فلننفض عن أقدامنا الغبار كما نفض هذا الرجل المجهود،
فإنا لن نسلك هذه الطريق مرة أخرى؛
ولننشق مثله في آخر المدى المحدود،
نفحاتِ الهدوء المبشر بالسلام الدائم

✡✡✡✡✡

إن أيامك الكئيبة القصيرة كأيام الخريف،
تنقبض انقباض الظلال عن حوادر الهضاب؛
فالصداقة تغدر بك، والرحمة تتخلى عنك،
وتقطع وحدك الدرب إلى عالم القبور

✡✡✡✡✡

ولكن الطبيعة هناك تُهيب بك وتحنو عليك؛
فألق نفسك في أحضانها التي لا تتجافى عنك،
فإن كل شيء يتنكر لك وينزوي عنك إلا الطبيعة،
فجوُّها هو الذي ينضح على آلامك،

وشمسها هي التي تشرق على أيامك

✲✲✲✲✲

بالأشعة والظلال لا تزال تحيطنا الطبيعة
فطهر قلبك من الغرور الباطل والمتاع الزائل،
واعبد هنا الصدى الذي كان يعبده فيثاغورس،
وأرهف أذنك مثله لموسيقى السماء.

✲✲✲✲✲

ثم اتبع الشمس في السماء والظل في الأرض،
وطِرْ في السهول مع ريح الشمال،
وجُسْ مع شعاع هذا الكوكب الهادي
خلال الغابات في ظلال هذا الوادي ..

✲✲✲✲✲

إن الله خلق العقول لتدركه،
فاكتشف في الطبيعة خالق الطبيعة،
فإن صوتًا لا يني يحدث المرء عن ربه ..
ومن ذا الذي لم يصغ إلى هذا الصوت في قلبه ؟

✱✱✱✱

الوادي الصغير (*)

أيا قلبيَ المكدود من كل وجهةٍ
لقد ضقت حتى من أمانيّ كلها
ألا مخرجٌ مما أعاني يبين لي
فتمضي الأماني المزعجات لحالها
أعرني أيا وادي الطفولة ملجأً
أعدُّ به نفسي ليوم رحيلها
فهذا صراطٌ ضيقٌ فيك راق لي
وخيّمت الظلماء فيك بظلها
وهذا هدوءٌ في نواحيك صامتٌ
وحولك غاباتٌ بدت من خلالها
على جبهتي تجري الظلال تماوجًا
فتغمرني بالصمت فورًا بفضلها

✲✲✲✲

هناك تراءى جدولان لناظري
وفوقهما جسرٌ من الزرع ناضر
إذا بهما حول المكان تعرَّجا
وقد تَجْمَع الفرعين حينًا معابر

(*) ترجمة «محمد أسعد ولاية» في «مختارات ..» ص (٣١) وما بعدها، يتصدرها «الوادي الصغير المقصود هنا يقع في جبال (دوفينيه) حوالي (جراند لامب) حيث كانت تقطن أسرة (فيريو) وقد أقام لامرتين هناك ستة أسابيع عام ١٨١٩، وفي تلك الحقبة أنشأ لامرتين هذه القصيدة التي كتبها إلى «إيمون ده فيريو». إن العواطف التي ذكرت فيها إذن هي عواطف متبادلة بين صديقين». وراجع تعليقنا على ترجمة الزيات: الوادي.

فتختلط الموجات إثر اصطدامها
وتسمع أنغام الخرير الهوادر
وليس بعيدًا عن منابع مائها
تلاشت وقد مضّت نداها الحوافر

✡✡✡✡✡

ومنبع أيامي كذلك قد مضى
ومرَّ ولم يُحْدِث ضجيجًا ولا رعدا
ولكنما موج الجداول رائقٌ
وروحي تعاني الاضطراب ولا تهدا
فهل من سبيلٍ لاجتلاءٍ محببٍ
بإشراق يومٍ بالجمال قد ارتدًا ؟
تقيّدني طول النهار نضارةٌ
لمرقد هذين الغديرين في الوادي
كطفلٍ قد استهواه لحنٌ منسَّقٌ
وروحي يغذّيها الخرير كإنشاد

✡✡✡✡✡

هناك أرى حولي نضارة خضرةٍ
ويكفي لعيني أن ترى قطرة الكونِ
وإني لتوّاق لتحديد مسلكي
وأبقى وحيدًا في الطبيعة، في ركن
فلا مسمعي يصغي لغير تجاوبٍ
من الموج يبديه التوائب، في لحن
ولا شيء يغريني برؤية منظرٍ
سوى القبة الزرقاء ترنو لها عيني

رأيت كـــثـــيـــرًا في حـــيـــاتـــي ولـهـــوهـــا
وأحـــبـــبـــت تكرارًا، فـــخـــيـــبني ظنـــي
وجـــــئـــت إلى وادي الـطـفـولـة باحـــــثًـــا
أروم مـع الـسـلـوى هـدوءًا، فـــــــهـل يُـغـنـي؟
أناجـــيـك يا مـــهـــد الجـــمـــال، فلبِّنـــي
وكن مـــرتـع النســـيـــان، والصـــفـــو والأمـن
فليـــس ســـوى النسـيـــان يبـــرئ عِلَّتي
وفـــيـــه هنائي، فـــاســـتـــجبْ لي بلا ضَـنِّ

✲✲✲✲

أرى أنّ قـــلـبـــي في اســـتـــراحـــتـــه غـــدا
قـــريرًا، وروحي فـي سكـون رجـــــوتـــه
وبُعْـدي عن الضـــوضـــاء أضـــعفَ وقـــعـــهـــا
وأضـحــت صـدى صـوتٍ عـمـيقٍ سـمـعـتـه
ويحـــــمـلـه نحـــوي الـهـــواء كنبـــرةٍ
وفي ســـمـــعيَ المرتـــاب همـــسًـا وعـــيـتـه

✲✲✲✲

هنا أجـــتلي صـــور الحـــيـــاة خـــبـــيـــئـةً
خـــلال غـــمـــامٍ ثم يمضــــي تلاشـــيـــا
خـــيـــالٌ من الماضـي يـــزول وينمـــحي
ولكن يظل الحُـــب حـــيًّـــا وباقـــيـــا
فـــهـــيّـــا أيَـا نفـــسي اســـتـــريحي بملجـأ
أخـــيـــر كـــجـــوَّاب يخـــالجـــه الأمـــل
ويـبـــــقـى عـلـى بـاب المـديـنـة لحـظـةً
ليـــرتـــاح من كـــد الطريق مـــتى وصـل

ويســـــتنشق النســــمـــات تحـــمل عطرها
مـــســـاءً، ليُـــقْصِ عن خــــوالجــــه الملل
وأقـــــــدامنا هذي تقـلـقـــــــل تـربـــــــةً
كــــأقـــدام جــــوّاب تــدب بضـــــغطهـــا
ولم يألف الإنســـان ســــيـــرًا بأرضـــهـــا
ســـوى من أحـــاطتـــه الحــــيـــــاة بشـرّها
فـــــهــــيــــا بنا ننأى عن الهــــم مـــــثله
ونأوي لميـــــدان الهـــدوء بســــاحـــــهـــا
ونهـــجـر ضـــوضـــاء الحـــيــاة ولهـــوهـــا
ونســــبق إســـــراع الوفـــاة وركـــضـــهـــا

✡✡✡✡

ولا ننس يا خلّي الحـــقـــيـــقـــة مطلقًـــا
فـــأيامك الغـــبـــراء تمضــــي قـــصـــيـــرة
وكـالظل إذ يمحـــو التـــقلص رســـمـــه
تـــزول كـــأيـــام الخـــريف ســـريعـــة
وتبـــدو صـــــداقـــات الأحـــبـــة خـــدعـــة
بهـــجــــران عـــاطفـــة الحنان مـــريبـــة
وأنت تـــوارى حين تقـــضـي بحــــفــــرة
وحـــيـــدًا وتبـــقى للفنـــــاء فـــريســـــة

✡✡✡✡

ولكن ســـتـــلقى في الطبـــيـــعـــة ملجـــأ
وتحظـــــى بمن يدعـــوك حِـــبًّـــا، فلبِّـــه
وفـــي الكنـــف المفـــتـــــوح دومًـــا هناءة
وراحـــــــة بـــــــالٍ للمـــــــعنَّى، فلُذْ به

وحـــــيـن تـــرى فـي كل شـــيءٍ تـغـــيُّـــرا
ينغِّص أســـــبـــاب الحـــيـــــاة كـــدأبه
تظـــل تصـــاريف الطبـــيـــعـــة مـــثلمـــا
عـــهِـــــدْت، على ســـيـــرٍ رتيبٍ مـــشـــابه
وأيـــــامـك الـغـــــــراء تحـظـى بـدورهـا
بإشـــــراق شــــمسٍ في الفـــضـــاء ورحـــبـه
ومـــا زلت بين الضـــوء والظل فـــانتـــبـــه
وخـــــــلِّص من الأوهـام حُـــبَّك ســــالما
وأنـقِـــــــذْه مـن زيـــــف الأبـاطـيـل إنـهـــــا
إذا اســـتـــحكمت، كـــانت لزيغك سُلَّمـــا
تـهـيـأ هنا واعـبـد صـــدًى لحـقـيـقـةٍ
كـمـا كـان «فـيـثـاغـور» يفـعل، عـالما
أعـــر ســـمـــعك الواعي لصـــوتٍ تتـــابعت
أناشـــيـــده العليـــا ترددها السَّـــمـــا

☆☆☆☆☆

فـــتـــابِـــع إذا حَـــلَّ النهـــار ســـمـــاءه
وتابـــــع على أرض البــــســـــيطة ظلـــه
وطـــر فـــوق ريـــحٍ للشـــمـــال كـــثـــيـفـــةٍ
ودر مـع إشـــــعـــــاعٍ جـــمـــيـــلٍ وحـــوله
فـــــذلك إشـــــعـــــاعٌ لأســــرار كـــوكـبٍ
وفـــيـــــه غــــمـــــوض يشـمـل الكون كله
وثـــم انزلق حـــول الحـــدائق عـــائـــدًا
إلى مـــهـــبط الوادي فـــيـــرخي ســـدوله

☆☆☆☆☆

وقـــد خـــــلـق الله الذكـــــاء لحكمـــةٍ
لأنّ احـــتـــجـــاب الله أمـــرٌ قـــضـى به

وتحـــــت نظامٍ للطبـــيـــعـــة مـــفـردٍ
تَجَلَّت خـبـايـــا المـعــجــزات لشــعــبــه

ألا إن صــــوتًا تشـــعـــــر النفس أنــه
يحــــــدثهــــا إبَّان صـــــمتٍ خلت بـه

فــمن ذا الذي لم يســمع الصـــوت هاتفًـــا
ومــــن ذا الذي لم يلتـــقطه بقلبـــــه ؟

****